

## الفصل الثاني

### طابع المجتمع الإسلامي

● دعوة الاسلام هي دعوة الى التحول عن الجاهلية والمادية - المجتمع الاسلامي هو مجتمع الروابط الانسانية - المساواة في الاعتبار البشري مبدأ أساسي - رسالة الله قد تعد بمتعة الدنيا - دين الله يسوى بين قيمة العمل واداء العبادات - دين الله يمقت القول الكثير والعمل القليل - اتباع دين الله لا يحمل المتبع له على أن يمتن بايمانه - المشاركة في الايمان هي وحدها التي تؤمن الثقة - التانى في قبول أخبار الأعداء سمة للمؤمن - اشاعات السوء يجب أن تقابل بالحذر ثم بعدم تناقلها - الاجتماع سرّاً بين المؤمنين يجب أن يستهدف البر والتقوى - من ليس ولاؤه للمجتمع الذي يعيش فيه ، لا يسوى في الحقوق بأفراده - لا يدفع غضب الأثرياء من أصحاب الحاجة في المجتمع الى امسك العطاء عنهم - مشقة ابتلاء المؤمنين هي السبيل الى الجزاء بالخير - ابتلاء المؤمنين بالشدة أمر مقدور لله - قد يكون الطريق الشاق هو السبيل الى خير المجتمع - الايمان والقتال - من يدعو الى الخير والصلاح فالله يقيه السوء - اطمئنان المؤمن الى ولاية ربه - الحرية هي سبيل العدالة الاجتماعية - اداء الصوم هو الطريق الى الحرية .

obeykandi.com

## طابع المجتمع الاسلامى

● دعوة الاسلام ، هى دعوة الى التحول عن الجاهلية والمادية :

يقول القرآن الكريم فى شأن بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم ( أى ليس اجنبياً عنهم فى لغتهم ، ولا غريباً عن بيئتهم وأحوالهم التى يعيشونها ) ينزلوا عليهم آياته ويذكّهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفقى ضلال مبين » (١) .. وقد كانت مهمته عليه السلام بينهم : أن يبلغهم آيات الله فى كتابه وهو القرآن المجيد ، حسبما كانت توحى إليه .. وأن يدعوهم إلى تطهير انفسهم من العادات التى كانت تسيطر عليهم ، والسبل التى كانوا يسلكونها فى حياتهم .. وأن يعلمهم أخيراً ما فى كتاب الله من مبادئ وحكم ، تقوم عليها أمتهم وتتميز بها جماعتهم . وهى مهمة ليست سهلة . لأن الناس على عهدہ عليه السلام كانوا فى ضلال مبين .. كانوا فى شرك ووثنية .. كانوا فى مادية وجاهلية .

فدعوة الرسول عليه السلام التى كانت قائمة على تبليغ الوحي الإلهى تنحصر فى أمرين رئيسيين :

الأمر الأول : تطهير الناس من شركهم ووثنتهم وجاهليتهم . أو كما عبّر القرآن : بأنه يذكّهم أى ينميهم فى مستوى الإنسانية وينقلهم فى هذا المستوى من مرحلة إلى مرحلة أخرى بعدها ، أبلغ فى هذا المستوى ، حتى يتمه . فإذا تم هذا المستوى أدت الدعوة غايتها الأولى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأنتم على نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٢) ..

الأمر الثانى : نقل الناس من ضلال مبين وحيرة وتخبط إلى عهد حضارى

(٢) المائة : ٣

(١) آل عمران : ١٦٤

إنساني ، قوامه ما في القرآن من مبادئ وحكم ، وهي مجموعة من المبادئ ، تكون نظاماً اجتماعياً ، واقتصادياً ، وسياسياً ، وسلوكاً أخلاقياً ، يكفل لهم الترابط القوي ، وينقذهم من التمزق والفرقة التي تسود المجتمعات المادية عادة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » (٣) . .

.. والدعوة الإسلامية إذن هي دعوة إلى تحول اجتماعي يسبقه صباغة الفرد أو صبغته بصبغة الله . وهي دعوة كذلك إلى حضارة إنسانية تقودها الحكمة ، وتوصلها المبادئ العامة .

والتحول الاجتماعي القائم على صباغة الفرد معناه : أن المجتمع لا يسبق الأفراد ، وتملى قيادته أو واقعه عليهم التوجيه والصباغة . وإنما الاهتمام أولاً في هذا التحول بالأفراد . يعرض عليهم الإسلام فمن قبله في حرية ومشيشة تامتين ، وفي غير خوف على رزق أو حياة ، التزم به وبمبادئه . وممارسته عندئذ ممارسة ناشئة عن حرية لا يشوبها إكراه ما ، ولذا ما يؤديه من عبادات الصلاة والصوم ، والزكاة ، وإن كانت واجبات تؤدي ، إلا أن أداءه لها فيه تقرب إلى الله . ولا يتقرب إنسان ما بشيء إلى موجود ما إلا إذا كان ما يتقرب به أمراً مرغوباً فيه من الطرفين ، وهذه العبادات الثلاث كفيلاً بأن تصبغ الفرد بصبغة الله . أي تحوله إلى لبنة مهيبة أو مشدبة في بناء المجتمع . أي تجعله صالحاً وذا أهلية للترابط مع أمثاله . ومنه ومن أمثاله يتكون المجتمع الإسلامي ، فقيام المجتمع الإسلامي متأخر عن أفراده . وأفراده منتخبون من ذواتهم . وهم أحرار في اختبار أنفسهم له .

أما الحضارة الإنسانية التي تقودها حكمة القرآن وتوصلها مبادئه العامة فهي حضارة غير مادية ، هي حضارة قيم عليا في حياة الإنسان .

والمؤمن برسالة المصطفى عليه السلام إيماناً خالصاً بها ، هو إنسان حضاري . على معنى أنه يطبق القيم العليا في حياته وفي علاقته بالآخرين معه . هو إنسان سلام ، وعدل ، وإحسان . هو إنسان تعاون ، وتواد ، وتكافل . لا يعرف الحقد ، ولا سفك الدماء ، ولا اللاأخلاقية ، ولا الغدر ، والنفاق .

إنه ترك بإيمانه الضلال : إلى الهداية ، والمادية : إلى الروحية الإنسانية ،  
والجاهلية : إلى الحكمة الإلهية . وأصحاب الحضارة التكنولوجية العلمية  
قد يكونون متخلفين في الحضارة الإنسانية التي قوامها الروابط الإنسانية .



### ● المجتمع الإسلامي مجتمع الملاك والعمال معا :

نوعان من المجتمع المعاصر يصارع بعضهما بعضا اليوم ، ويتربص  
أحدهما بالآخر : مجتمع أصحاب رؤوس الأموال أو الملاك .. ومجتمع  
العمال أو البروتاليا .

أما مجتمع أصحاب رؤوس الأموال ، أو الملاك فهو المجتمع الذي يسلم  
قيادته وتوجيهه ، كما يسلم الرعاية وضروب المنفعة المختلفة فيه ، إلى من  
يملكون المال وحدهم . ومن ضروب المنفعة التي تؤول إليهم : العمل في  
أموالهم ممن لا يملكون المال : في مصانعهم .. في مؤسساتهم المالية والتجارية  
.. في مزارعهم .

فالملاك هم أرباب العمل ، والعمال أجراء عندهم . ومهما يكن من عدد  
العمال وكثرتهم في المجتمع الرأسمالي فإن الكلمة فيه أخيراً لأصحاب  
رؤوس الأموال : في السياسة .. وفي التشريع .. وفي السلطة التنفيذية . والأمر  
في هذا المجتمع لا يدور مع الكثرة العددية ، بل مع أصحاب السلطة  
والنفوذ ، وهم القلة التي تملك . ومن أجل ذلك كان مجتمعاً رأسمالياً ، أو  
مجتمع ملاك .

وأما مجتمع العمال أو البروتاليا فهو المجتمع الذي تملك فيه الدولة  
رأس المال ، وتباشر فيه مهمة رب العمل : في تحديد نوع العمل للعاملين  
وفي تحديد أجورهم .

ومجتمع العمال يقوم لينهى - كما يقال - ما يسمى بالصراع الطبقي ،  
وهو الصراع بين القلة صاحبة رأس المال وصاحبة النفوذ في المجتمع ،  
والكثرة من العمال الأجراء الذين يعملون في أموال هذه القلة . وهو صراع  
يملك فيه أصحاب رؤوس الأموال : تحديد الأجور وساعات العمل وزيادة

الإنتاج ، بينما تتطلب فيه الكثرة العاملة بتحسين أوضاعها الاجتماعية في السكن ، والانتقال ، وضروب النشاط الاجتماعي ، وبرعايتهم الصحية في أداء العمل ، وتوفير أنواع التعليم والمهارات لها ولأولادها .

والصراع بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال هو صراع قد تتحكم فيه الأنانية في جانب أصحاب رؤوس الأموال ، كما تتحكم فيه الميول التخريبية والنشاطات المغرضة التي يوحى بها الاستعمار الشيوعي للطبقة العاملة .

والفساد الذي يشيع في المجتمع الرأسمالي إذن يعود إلى أنانية الملاك من جانب ، ونزعة الحقد والتخريب لدى العمال فيه من جانب آخر .

ومجتمع العمال إذ ينهي في الشكل الصراع الطبقي لا يوفر للعمال ظروف الحياة الكريمة . وإنما يصبحون أرقاء لما يسمى بالدولة في المجتمع . والدولة هي عصابة الحكم من رجال الحزب التي تتولى الوصاية على الحركة العمالية إلى أن يتحقق ما يسمى بالحكومة العمالية العالمية !! . ويصبح مجتمع العمال شكلاً من أشكال الرق الجماعي ، لا تمارس فيه الحرية في صورة ما . وبالأخص حرية الملك .. وحرية الرأي .. وحرية الانتقال .. وحرية العمل .

أما الإسلام فلا يرى صلاحية أي من نوعي النظام المعاصر في المجتمع بالنسبة لكرامة الفرد وحسن ترابطه بمن معه في المجتمع . لا يرى صلاحية النظام الرأسمالي لأن أنانية أصحاب رؤوس الأموال أو الملاك فيه تحول دون أن تكون هناك سكنى واستقرار ، ومودة ، ورحمة بينهم وبين الأجراء في أموالهم وهم العمال . والسكنى ، والمودة ، والرحمة هي الأهداف الرئيسية التي حددها القرآن للمجتمع البشري في قول الله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٥) . فالأنانية في ملكية المال وفي منفعتها تجعل هناك شحاً في رعاية الآخرين وهم العمال ، مما يملأ نفوس هؤلاء بالحقد والبغضاء ، وروح الانتقام والتخريب . كما أن النزوع إلى التخريب لدى العمال في أموال أصحاب رؤوس الأموال ، تحت ضغط

الإثارة الخارجية من جانب الشيوعية الدولية ، هو بمثابة حرب تقوض كل ما قد يعمل لإرساء العلاقات بين الملاك والعمال على أساس من الروحية الإنسانية ، التي تعلنها الآية الكريمة هنا .

ولا يرى الإسلام صلاحية نظام المجتمع العمالي التي تملك فيه الدولة رأس المال ، كما أنها هي التي تسخر العمال ، وبذلك تجمع بين الملكية . وتوجيه العمال . بالإضافة إلى ما لها بحكم كونها الجهة الحاكمة من مباشرة التحكم فيما يجد من خلافات بين أرباب العمل والعمال أنفسهم . لا يرى الإسلام صلاحية هذا النظام لآثاره السلبية على العمل وعلى العاملين معاً . فالعمل سيضعف ، إن في كفه أو في نوعه ، لأنه ليس له صاحب حقيقي يرعاه ويباشر تنفيذه . والعمال سيجدون أنفسهم في مجال يساقون فيه إلى العمل ، من غير أن تكون لهم رغبة حافزة نحوه . إما لعدم كفاية الأجور .. أو للترقة الواضحة بين عامل وآخر دون أن تكون هناك ميزة في المهارة والكفاية والإنتاج للتمييز على غيره .

وملكية المال للدولة - أو للشعب كما يقال - هي ملكية اعتبارية . وواقع الأمر أن المال عندئذ بدون مالك حقيقي ، وبالتالي بدون حراسة ورقابة ، والمجتمع الذي تملك فيه الدولة وحدها هو مجتمع بدون مالكين ، أو مجتمع عاملين فقط . وذلك ضد طبيعة الوجود . لأن الوجود في طبيعته يقوم على « الزوجية » . أى على الشيء ومقابله . والنوع الإنساني إذ وجد على أساس الذكورة والأنوثة معاً ، فإن قيام مجتمعه وصلاحية أمره يقوم على التقابل نفسه .. يقوم على وجود من يملك فيه المال ، ومن لا يملكه ، ولكن يعمل فيه .

وقول الله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » (٥) .. يوضح أن تفاوت الناس في ملكية المال يستهدف إلى تحقيق التكافل بينهم . وهو تكافل صاحب المال مع صاحب الطاقة على العمل . فقسم الله لمعيشة الناس في

الحياة الدنيا اقتضت أن بعض الناس يملكون ، والبعض الآخر لا يملك منه . ولكن لديه طاقة على العمل . فوجود المالك ووجود العامل معاً هو لتحقيق التزاوج والتماسك في المجتمع . والمجتمع الإسلامي إذن ليس مجتمع ملاك فقط ، بمعنى أن تكون السيادة فيه لمالك المال وحده . وليس كذلك مجتمع عمال فقط بمعنى أن الدولة وحدها هي التي تملك المال ، لأن المال عندئذ يكون بغير مالك . ولذلك إذا كان المال أصلاً ملكاً لله فاستخلاف الإنسان عليه حدد حقيقة المباشر له .

ومع أن بعض أفراد المجتمع يملك المال حسب نظرة الإسلام ، فإن هذا البعض لا يطغى بالمال ولا تتحقق له سيادة نافذة في المجتمع عن طريق ملكيته له وبذلك يختلف المجتمع الإسلامي عن المجتمع الرأسمالي . فالمال أصلاً هو لله وحده ، ومالكة من الناس مستخلف عليه ، في تنميته وفي إنفاقه ، طبقاً لما جاء في كتاب الله خاصة بتنمية المال وإيقاظه معاً . فالله يبعد في التنمية طريق : الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل . كما يبعد في الإنفاق التقدير ، والبسط . واستخلاف المالك على ما يملك من مال هو في واقع أمره ابتلاء من الله له : أيسر المالك في تنميته وإنفاقه طبقاً لوصايا القرآن ، كتاب الله جل شأنه وصاحب المال على الحقيقة ؟ : « وهو انذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات (أى في ملكية المال) ليبلوكم في ما آتاكم » (٦) ..

وفي الوقت نفسه ينظر الإسلام إلى المال على أن له وظيفة اجتماعية . وهي أن منفعة سواء لمن لا يملك . إذ طالما أنه لله على الحقيقة ، والله للجميع ، فمنفعته يجب كذلك أن تكون للجميع . وإن وقع في استخلاف البعض دون البعض الآخر : يقول الله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برأى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء ، أفبئس ما يجدون » (٧) ..

وإذا كانت منفعة المال لمن يملك ولمن لا يملك على السواء ، فالمالك كالعامل سواء بسواء . كلاهما له مصلحة في المال ، وكلاهما له مصلحة في

(٧) النحل : ٧١

(٦) الأنعام : ١٦٥

العمل فيه . فالمالك إن بدت له مصلحة في العمل في ماله ، فالعامل له مصلحة حقيقية كذلك في مال المالك ، عدا أنه يؤجر على عمله فيه . وهي مصلحة المشاركة في منفعته العامة . فهو على فرض أنه سيعجز عن العمل فمصلحة المشاركة في منفعته باقية له ، يأخذ منه ليعوض عن عجزه وعدم صلاحيته للعمل .

وعمارة الكون إذن - والمجتمع صورة من صورته - تقوم على المالك والعامل معاً . المالك يحرس ماله ويباشر تنميته . والعامل يعمل فيه ويؤجر على عمله . ولاتتم هذه العمارة بسيادة الملاك وحدهم عن طريق المال ، ولا بملكية الدولة مع قطعان العمال التي تسوقهم إلى العمل سوقاً .

..ولذا لا يقال : إن الاسلام يؤيد المباشرة الحرة في المال . أى يؤيد الملكية الفردية التي هي أساس النظام الرأسمالي ، طالما هو يبيح ملكية الأفراد للمال أو لاستخلافهم عليه . لأن معنى الاستخلاف على المال يفرق بين الملكية الفردية في الاسلام ، والملكية الفردية الأخرى في النظام الرأسمالي . فالاستخلاف طريق مرسوم لمنع الطغيان عن طريق ملكية المال ، ولتأدية وظيفة المال الاجتماعية عن طريق الزكاة . فالمستخلف ملتزم بالسير في تحقيق العدالة الاجتماعية طبقاً لوصايا الاسلام . وأولى هذه الوصايا : تحقيق المنفعة العامة للمال للمالك وغير المالك على السواء : « فهم فيه سواء » فضلاً عن أن اتفاقه لا يجوز أن يكون في عبث أو مفسدة ، وأن انماه لا يجوز أن يكون عن طريق استغلال صاحب الحاجة إليه . وتحريم أكل أموال الناس بالباطل يعم كل ضروب العبث والفساد ، بينما تحريم الربا في المعاملات المالية يشمل صور الاستغلال لحاجة صاحب الحاجة . ويدخل في هذه الصور : استغلال العامل في أجره وفي رعايته الاجتماعية والصحية ، لأنه صاحب حاجة إلى الأجر على العمل ، ورد القرآن على سؤال من يسأل عن المقدار الذى يجوز لمالك المال أن ينفقه في قوله الله تعالى « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٨) يفيد أن المالك أو المستخلف على المال يأخذ من المال حاجته ، ويعطى العفو أو الزائد عن هذه الحاجة في وجوه الاتفاق المشروع ، تحقيقاً للمنفعة العامة للمال .

(٨) البقرة : ٢١٩

ومع كون المجتمع الإسلامي مجتمع ملاك وعمال معاً فإنه ليس مجتمعاً طبقياً . لأن الملاك والعمال إخوة في الإيمان ومتساوون في الاعتبار البشري . وإخوة بعضهم لبعض تحول لذلك دون قيام نزاع بينهم ، فضلاً عما يسمى بالصراع الطبقي . ومساواة بعضهم لبعض في الاعتبار البشري من شأنها أن تمنع سخرية بعضهم من بعض واستخفاف القوى بالضعيف . وقد جاء الأمران في قول الله تعالى :  
« انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون .  
يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنازروا بالالقباب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (٩) . .  
فإذا تحول النزاع بين طائفتين من المؤمنين - ملاك وعمال .. حاكم ومحكومين - إلى قتال بينهما ، وجب تدخل المؤمنين بالقسوة لإنهاء القتال ، ثم معالجة الأمر بينهما بعد ذلك على أساس من العدل :  
« وان طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاصلحوا بينهما ، فان بفت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى امر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، ان الله يحب المقسطين » (١٠) . .

وهكذا : هناك ثلاثة نظم في ملكية المال وانمائه ، وإتفاقه ، وبالتالي هناك ثلاثة أنواع من المجتمعات :

أولاً : الملكية الفردية للمال ، والحرية في انمائه واتفاقه . ومجتمع هذا النظام هو المجتمع الرأسمالي ، أو مجتمع الملاك .

ثانياً : ملكية الدولة للمال ، وممارسة الدولة السيادة على الأفراد في تحديد العمل والأجور . ومجتمع هذا النظام هو مجتمع العمال بدون مالكين للمال .

ثالثاً : الملكية الفردية للمال ، والالتزام في إتفاقه وإنمائه بحدود الاستخلاف فيه وهذه الحدود تحول دون الطغيان به . ومجتمع هذا النظام هو مجتمع الملاك والعمال معاً ، أو المجتمع الإسلامي .

(١٠) الحجرات : ٩

(٩) الحجرات : ١٠ ، ١١

وهكذا : دخول الاستخلاف في الملكية الفردية للمال هو الفيصل في تمييز المجتمع الإسلامي عن المجتمعين الآخرين : الرأسمالي .. والعمالي .. لأنه على أساس من الاستخلاف في المال لا توصل الملكية الفردية إلى الصراع الطبقي .. وبالتالي إلى التحول إلى المجتمع العمالي . فالاستخلاف كتفويض من الله يضع المالك للمال أمام مجموعة من القيود أو المبادئ لا يجيد عنها ، يضعه :

- أمام المنفعة العامة للمال الخاص ، فيشارك أصحاب الحاجة معه .
- وأمام عدم الاستغلال لصاحب الحاجة عند التنمية ، فيمتنع عن الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وبالأخص أكل أموال الضعفاء .
- وأمام عدم العبث والتقييد في الإنفاق على الذات أو على الآخرين ممن يجب الإنفاق عليهم .

وبهذه القيود أو المبادئ لا تكون الملكية الشخصية طريقاً إلى الطغيان بالمال والتدخل في شئون الحكم وتوجيه سياسة المجتمع . بل تبقى طريق المباشرة النشطة للمال .

وبهذه القيود أو المبادئ كذلك لا تكون الملكية الشخصية منفذاً إلى تكديس الثروة ، ولا إلى الشح في إنفاقها ، فمانع الزكاة مرتد ، ويقاقل على رده ، وتقسيم الإرث ضرورة اجتماعية واقتصادية .

وبهذه القيود أو المبادئ أيضاً كما تكون للمال حرمة عدم الاعتداء عليه باتلافه ، أو تخريبه ، أو الامتناع عن العمل في إنمائه .. تكون للعامل فيه حرمة الحق في الأجر المجزى ، وفي ضروب الرعايات المختلفة . كإنسان يتساوى في الاعتبار البشري مع المالك سواء بسواء .

\* \* \*

#### ● المجتمع الإسلامي هو مجتمع الروابط الانسانية :

طلب نوح عليه السلام من ربه أن يغفر لابنه وأن يشملته برحمته ، وعلل طلبه هذا من أهله ، فقال : « ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان

وعندك الحق وانت احكم الحاكمين « (١١) .. ولكن كان جواب الله له هو قوله تعالى : « قال يا نوح انه ليس من اهلك ، انه عمل غير صالح » (١٢) . وفي هذا الجواب ينكر الله على نوح أن يكون ابنه في عداد أهل نوح وجماعته ، إذ جماعته أو مجتمعه على الحقيقة يتكون من المؤمنين به وبرسالته وليس من أقربائه وذوى رحمه في الدم والعلاقة الأسرية .

فالعلاقة في مجتمع المؤمنين ليست علاقة الدم والقربة ، وليست علاقة القبيلة والأسرة إذن ، وإنما هي علاقة الإيمان بالله والعمل الصالح . وبهذا يوجه الله رسوله نوحاً إلى أن علاقة القربة لا توضع موضع الاعتبار إطلاقاً عند تقييم الروابط التي يرتبط بها الأفراد فيما بينهم في مجتمع الرسالة ، وأنه ينبغي للرسول - ولقائد مجتمع المؤمنين بعده - أن يهتم بأفراد المجتمع على أساس الإيمان بينهم ، وليس على أساس القربة وصلة الدم الذي يجرى في عروقهم .

وفي رسالة القرآن للرسول محمد عليه السلام طلب منه ومن المؤمنين به أن يلجأوا إلى هداية الله ويلوذوا بها دائماً في ترابط بعضهم ببعض وأن يعتصموا بها عندما ينشدون القوة والتأخي والمحبة فيما بينهم . فيقول : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ( وحبل الله هو هدايته في كتابه ) ولا تفرقوا ، ( أى لا تتوزعوا على أساس القبيلة والأسرة ) واذكروا نعمة الله عليكم ( الآن بعد الإيمان ) اذ كنتم أعداء ( بسبب القبلية التي كانت شائعة بينكم ) فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » (١٣) ..

فحبل الله أو هدايته تنطوي على مبادئ توجيه الرسالة الإلهية للإنسان . وهي مبادئ تدفعه إلى أن يكون ذا مستوى فاضل في الإنسانية .. تحمل المؤمن بالله على أن يتحول من أنانية يعيش تحت تأثيرها وينكر غيره

(١٢) هود : ٤٦

(١١) هود : ٤٥

(١٣) آل عمران : ١٠٣

في الوجود معه إلى أن يحس غيره كما يحس ذاته ويعيش لغيره كما يعيش لذاته ، أى تحمله على أن يكون إنساناً في سلوكه وفي معاملته للآخرين .

والدعوة إلى الاعتصام بهداية الله هي دعوته إلى النجاة من السقوط في الفرقة ، وهي فرقة الخصومة بسبب الأنانية الغالبة . والسقوط في الفرقة معناه السقوط في الضعف ، السقوط في الشحناء والبغضاء ، السقوط في القتال والحروب .

وإذا ذكرت الأنانية ذكر ما يقوم عليها من ترابط الأسرة ، والقبيلة ، والفرقة . وإذا ذكرت اللأنانية أو هداية الله وحبله ذكرت الإنسانية وقيمها العليا التي تتمثل في المحبة والأخوة وروح التواد والمعاونة .

والرسالة الإلهية إذن منذ أن عرفت على عهد أقدم الرسل وهو نوح إلى عهد رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام : تعنى بالروابط الإنسانية وحدها وتوجه المؤمن نحو ادراكها والتحول في الواقع إلى مستواها دون غيرها .

والدعوة إلى المجتمع الإسلامى دعوة في واقع الأمر إلى المجتمع الإنسانى الذى ينبذ صفات الجاهلية المادية ويتحلى بالصفات الإنسانية .. هي دعوة إلى مجتمع يعطى أفراده من فائض إنسانيتهم إلى أصحاب الحاجة معهم في مجتمعهم بدلا من مجتمع يستغل أفراده حاجة بعضهم بعضاً إلى البقاء على قيد الحياة .. هي دعوة إلى مجتمع يقول الله في شأن أفرادهِ : « وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيتِيمًا وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » (١٤) .. بدلا من ذلك المجتمع الذى بقى عند حد المادية والأنانية وكفر بالقيم الإنسانية وجاء وصفه في قوله تعالى : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان انتم الا فى ضلال مبين » (١٥) ..

ليس هناك مجتمع دينى ، إنما هناك مجتمع إنسانى ، وليس هناك مجتمع غير دينى ، وإنما مجتمع أنانى أو مادى .

\* \* \*

## ● المساواة في الاعتبار البشري مبدأ أساسى :

توفير الاعتبار البشري لكل إنسان من الآخرين معه في مجتمعه : قضية أساسية في الإسلام . فالإسلام لا يعرف تصنيفاً لطبقات في المجتمع على أساس من الغنى والفقير ، أو الجاه والشرف ، أو نوع العمل الذى يباشره الإنسان . وإنما إذا ميز إنساناً عن إنسان فميزته عند الله بالمستوى الإنسانى فيه . على معنى أن صاحب المستوى الرفيع في التهذيب والسلوك ، وأداء الواجب ، والمشاركة للآخرين في عواطفهم ومعاوناتهم على سد حاجاتهم أقرب في القبول عند الله ، من إنسان آخر هو أدنى منه في هذا المستوى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١٦) .. ولكن في المجتمع يجب أن يتوافر الاعتبار البشري للأفراد جميعاً على السواء . فلا يسخر فرد من فرد ، ولا ينتقص إنسان إنساناً آخر ، ولا يدعو إنسان إنساناً بما يكره أن يناديه به أحد . ولذا ينهى القرآن في سورة الحجرات عن السخرية .. وعن اللمز وهو الانتقاص من قدر الإنسان .. وعن التنازب بالألقاب التى تنطوى على الاحتقار ، في قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ( أى ينتقص أحدكم الآخر ) ولا تنازروا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ( أى أن مباشرة السخرية ، واللمز ، والتنازب بالألقاب تكاد تكون خروجاً عن الإيمان . وليس هناك أقبح من العودة إلى الجاهلية والكفر ، بعد الإيمان ) ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (١٧) ..

ويقول الله سبحانه هذه الآية عقب قوله : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (١٨) .. مما يشير إلى أنه قد يكون سبب القتال بين طائفتين من المؤمنين هو عدم توفر الاحترام بينهما في رعاية الحقوق المماثلة لكل منهما .. ثم قوله بعد ذلك :

« انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلمكم ترحمون » (١٩)

(١٧) الحجرات : ١١

(١٨) الحجرات : ١٠

(١٦) الحجرات : ١٢

(١٨) الحجرات : ٩

فالمجال مجال تصفية النفوس مما قد يكدر العلاقة بينها . وليس هناك ما يكدر النفس ويشحنها بالحقد بعضها ضد بعض ، من أن ينكر على بعضها الحق في الحياة والكرامة الإنسانية ، بناء على تفرقة في الاعتبار البشرى .

وفي مجال تصفية النفوس عرض القرآن للظاهرة التي قد تحدث ، وهي ظاهرة القتال بعد النزاع بين مجموعتين من الأفراد في الأمة . واقتراح علاجها على أساس من العدل المجرد : « فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، ان الله يحب المقسطين » .. ثم بين الدافع لوجوب المصالحة على أساس العدل المجرد ، وهو أن العلاقة بين المجموعتين المتقاتلتين : علاقة إخوة في الإيمان ، وإخوة في الإنسانية : « انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم » . ثم حرم ما من شأنه أن يكون السبب في المخاصمة والتقاتل بين فريقين من المؤمنين ، وهو أن تسخر مجموعة من المؤمنين بمجموعة أخرى من بينهم ، أن تؤذيها إيذاءً نفسياً بالانتقاص من قيمتها أو بدعوتها وندائها بما لا تحب أن تنادى به .

.. والمساواة في الاعتبار البشرى في نظر الإسلام إذن منهج في الحياة بين المؤمنين جميعاً :

١ - لضمان الحقوق المماثلة لجميع الأفراد ، في الحياة والكرامة الإنسانية .

٢ - وسلوك بعيد كل البعد عن السخرية والانتقاص في القيمة لأى فرد في الأمة .

٣ - وإسراع في تصفية النفوس عند التنازع والذهاب فيه إلى القتال ، على أساس من العدل المجرد ورد الحقوق المماثلة لمن اعتدى عليه فيها .

وهكذا : لا يعرف الإسلام طبقيّة ، ولا صراعا بين طبقات ، ولا يعرف عقداً كأساس لحل مشكل ، إنما يعرف الأخوة والمساواة في الاعتبار والمماثلة بين الحقوق والواجبات .

\* \* \*

● رسالة الدين لا تعارض متعة الدنيا :

نقرأ نداء نوح إلى ربه في قوله تعالى :

« قال رب انى دعوت قومي ليلا ونهاراً . فلم يزدتهم دعائى الا فراراً . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكباراً . ثم انى دعوتهم جهاراً . ثم انى اعلنت لهم واسررت لهم اسراراً . فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم باسوال وبشين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً » (٢٠) . . . نقرأ هذا النداء فترى أن نوحا عليه السلام وعد قومه إن هم استجابوا لدعوته وآمنوا بالله وحده وطرحوا الشرك والوثنية المادية - بأن يغفر الله لهم ماديتهم وجاهليتهم .. وأن يرسل عليهم من السماء مطرا يحول أراضيهم إلى جنات ، ويشق فيها أنهارا وقنوات . وبذلك تزدهر ثروتهم الزراعية والحيوانية ، كما يكثر عددهم وينشأون على القوة والعزة فيكون لهم المدد المستمر من الأموال والشبان .

ونقرأ قوله في سورة الأعراف - وهى السورة التى تقص تاريخ الرسالة الإلهية والرسل فى العهود والأجيال المختلفة :

« ولو ان اهل القري ( وأهل القرى هم المجتمعات السابقة التى آثرت البقاء على الجاهلية والشرك ) آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ( وبركات السماء هى ماء الأمطار .. وبركات الأرض هى ما يخرج منها من زراعة ومعادن ومما ينشأ على ذلك من ثروة حيوانية وقوة بشرية فى كمها وكيفها ) . ولكن كذبوا ( أى ولكن أهل هذه المجتمعات المادية السابقة آثروا البقاء على التكذيب لرسالة الله ، والحياة فى ظل الوثنية ) فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (٢١) . . . ( ومن أجل ذلك كان جزاؤهم هو الهلاك والاستئصال . وهو جزاء استحقوه هم بسبب موقفهم . وهو موقف المعارضة من رسالة الله والكفر بما جاء به الرسول ) .

وتتجاوز مجتمع نوح ومجتمعات الرسل بعده إلى مجتمع أهل الكتاب فى بنى إسرائيل فنجد قول الله تعالى فى مواجعتهم :

(٢١) الأعراف : ٨٦

(٢٠) نوح : ٥ - ١٢

« ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم ( أى لو أن أهل الكتاب طبقوا ما جاء لهم فى رسالة التوراة ، ثم ما جاء بعدها فى رسالة الإنجيل ، وكذلك ما أنزل إليهم من ربهم من كتاب الله وهو القرآن - وما جاء فى هذه الرسائل فى عهودها المختلفة لا يخرج عن مقاومة المادية وطرح الشرك والوثنية وحمل الإنسان على أن يسلك المسلك الإنسانى فى حياته - لو أنهم طبقوا هذه الرسائل حقاً فلم يحرفوا البعض وينكروا البعض الآخر ) لاكلوا من فوقهم ( وهو ما تجود به أمطار السماء ) ومن تحت أرجلهم ، ( وهو ما تخرجه الأرض التى يعيشون عليها ) ، منهم امة مقتصدّة ، ( أى لكن منهم فقط مجموعة معتدلة وعادلة ) وكثير منهم ساء ما يعملون » ( ٢٢ ) .. ( وأما الكثرة الغالبة فهى تحرف وتنكر . ومن هنا لم يتم وعد الله لهم ) .

فى كل ما قرأناه لم تنكر رسالة الله إذن الاستمتاع بمتع الدنيا . بل العكس - كما رأينا - تعد بمتع هذه الحياة للإنسان جزاء لإيمانه ، مما يدل على حلها ويدل فى الوقت نفسه على أن السعى لتحصيلها مطلوب من الإنسان فى دنياه .

والشئ الذى تحذر منه الرسالة الإلهية هو الإسراف فى الاستمتاع بها فقط : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » ( ٢٣ ) ..



#### ● دين الله يسوى بين قيمة العمل واداء العبادة :

الإسلام لا يعرف الانقطاع إلى العبادة . وإنما المؤمن برسالته . كما يجب أن يؤدى العبادة من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، تقرباً إلى الله ، يجب عليه أن يسعى فى الأرض ابتغاء فضل الله وتحصيل رزقه . وقد كان عثمان ابن مظعون - وهو أخ من الرضاع للرسول عليه الصلاة والسلام - قد انقطع للعبادة فبعث إليه الرسول ، فجاءه ، فسأله : أرغبت يا عثمان عن سنتى ؟

قال : لا والله يا رسول الله ، ولكن سنتك أطلب ؟ قال : « فإني أنام ، وأصلي ، وأصوم ، وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله يا عثمان ، فإن لأهلك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا .. وإن لنفسك عليك حقا . فصم ، وأفطر . وصل ، ونم » .

فهذا الحديث يطلب من المؤمن ألا يتخلى ، من أجل العبادة ، عن الواجبات التي يجب أن يؤديها نحو نفسه وأهله ، ومن لهم حق عليه . إذ العبادة في نظر الإسلام وإن كانت الغاية من خلق الجن ، والإنس .. من خلق الملائكة ، والناس جميعاً على السواء ، لما جاء في قول الله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٢٤) . . إلا أنها من جانب آخر عامل يعين العابد على أن يحقق في ذاته خصائص الإنسان . وأهم هذه الخصائص : السعى في سبيل الرزق . وإذ يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (٢٥) . . يوضح أن سعى الإنسان في سبيل الرزق يقترن في الاعتبار عند الله بالسعى إلى أداء صلاة الجمعة عندما يؤذن المؤذن لها .

ويوضح من جانب آخر أن الغاية من خلق الموجودات التي تختبر في طاعة الله ، سواء منها المعهود الذي يعرف ويرى ، وغير المعهود الذي لا يعرف ولا يرى ، وهي العبادة ، على نحو ما يعبر قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . . يراد منها أن خلق الأجيال المتتابة من البشر على الخصوص في هذه الدنيا بعد آدم وحواء ، يستهدف منه الابتلاء في طاعة الله والخشية منه ، إثر تبليغ الرسول لرسالة الله . ويستمر هذا الابتلاء إلى يوم أن تقوم الساعة . وهذا الابتلاء في طاعة الله لا يعني تواكل الإنسان وقعوده عن السعى في سبيل فضل الله ورزقه . لأن الله سبحانه عندما تكفل بالرزق لبعض المخلوقات ، في قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » (٢٦) . ربط تكفله بالرزق بحركة

(٢٥) الجمعة : ٩ ، ١٠ .

(٢٤) الداريات : ٥٦

(٢٦) هود : ٦

المخلوق في سعيه نحو تحصيله ، إذ يعبر بقوله « وما من دابة في الأرض » ..  
أى ما من مخلوق من شأن طبيعته الحركة : يتكفل الله له بالرزق ، عندما  
يتحرك في الأرض ويدب عليها ، ويسعى فيها .

والإسلام إذن لا يعرف التواكل ، وإن كان يطلب التوكل على الله  
والاعتماد عليه عندما يعزم ويصمم على التنفيذ والعمل .

والإسلام أيضاً لا يعرف القدرية وهي السلبية وترقب ما يأتي به القدر ،  
وإن كان يطلب الإيمان بالقضاء والقدر ، دفعاً إلى عدم التهيّب في الحياة .  
فالإيمان بالقضاء والقدر ليسر على الإنسان المؤمن : أن يجتاز المشاق  
والصعاب بروح قوية لا تعرف الهزيمة والاستسلام ، طالما أن العمر واحد ،  
وأن أجل الإنسان مكتوب ، وطالما أن ما هو مقدر ليس منه مهرب .

والإيمان بالقضاء والقدر لا يدعو إذن إلى السلبية في الحياة . بل على  
العكس يدعو إلى الإيجابية والعمل . والذين يروجون عن الإسلام ، أنه دين  
تواكلى ، أو دين قدرى لا يستطيعون : أن يفهموا قول الله تعالى :  
« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » ..  
أى إذا انتهت صلاة الجمعة فانتشروا في بقاع الأرض وفي سبلها ، قصداً  
لتحصيل رزق الله ، وهو ماله ، ونعمته ، وفضله ، في التجارة ، أو المهنة  
أو الحرفة ، أو الزراعة والصناعة . ولا يستطيعون أن يفهموا قوله :  
« ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » (٢٧) .. فيرخص بالسعى في  
سبيل الرزق ، أثناء أداء عبادة الحج .

إن قيمة العمل لا تقل شأنًا عن عبادة الله . ذلك من مبادئ الله في  
المجتمعات البشرية .

\* \* \*

#### ● دين الله يمقت القول الكثير والعمل القليل :

من الناس - إذا كانوا يحملون طبيعة النفاق - يتحدثون كثيراً ،  
ولا يفعلون إلا القليل . ومن كثرة ما يقولون يخدعون غيرهم . ومن قلة

ما يفعلون يخرجون هؤلاء أشد الحرج . وهم ليسوا مكلفين من أحد ولا من أنفسهم أن يتحدثوا عما لا يستطيعون أن يأتوا به . والعاقلة يدرك : أنه الأولى به إذا كان لا يستطيع أن يفعل ، أو يشك في أن يفعل ، ألا يذكر شيئاً وألا يشير من قريب أو بعيد إلى ما لا يستطيعه .

والقرآن لكى يوضح : أن القول الكثير .. والعمل القليل ، أو أن الوعد بأمر .. ثم التخلي عنه ، له ضرر على المتحدث نفسه ، وضرر آخر على من يوجه الحديث إليهم ، ومن ثم فهو ممقوت عند الله ، جاء قول الله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٢٨) . . وقد قيل إن هذه الآية نزلت في شأن من وعدوا بالثبات في القتال قبل موقعة « أحد » وعندما جاءت الموقعة ولاحت بوادى الهزيمة على الأعداء تخلوا عن مكانهم في الميدان ، جرياً وراء جمع الغنائم ، ثم كانت الهزيمة من أجل ذلك للمؤمنين . ويؤيد هذا الرأي قول القرآن بعد ذلك : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » (٢٩) . . أى يريد من المقاتلين المؤمنين حقاً : أن يثبتوا في القتال حتى لا تكون هناك ثغرة في صفوفهم ، تخل بنظامهم ووضعهم في القتال في مواجهة أعدائهم كما وقع في « أحد » .

وأياً كان السبب في نزول الآية فإنها تنطوي على مبدأ عام أو ظاهرة إنسانية عامة خطيرة ، تشيع وتتكسر ، إذا لم يع الإنسان عاقبتها على المجتمع وعلى الذات كذلك ، ويأخذ نفسه بالدقة والتحرى في القول . وهو مبدأ الميل إلى الحديث والاسترسال في الوعد ، مع قلة الإنجاز أو مع عدمه .

وخطورة هذا الميل إلى التوسع في الحديث والقول دون فعل ، على المجتمع ، وخصوصاً في وقت الأزمات : أن الناس يترقبون من لحظة إلى أخرى الوفاء بما قيل لهم ، بعد أن تطلعوا إليه وعلقوا عليه الأمل في حل مشكلة أو مشكلات لهم . ثم تمضي اللحظات وتتبخر الأقوال قولاً بعد آخر ، دون أن يكون لها مدلول في حياتهم .

(٢٩) الصف : ٤

(٢٨) الصف : ٢ ، ٢

ومن حكمة السياسة والقيادة في التوجيه إبعاد جانب المبالغة في الوصف أو في القول أو في الوعد ، والتزام الحيطة في الأحاديث عن الشئون الجادة التي تتصل بحياة الناس ومستقبلهم .

أما خطورة هذه الظاهرة على الذات فإن الخلف في الوعد ، وعدم الإنجاز لما قيل وتردد في الحديث يعود بأثر سلبي ينسب إليها . وهو الوصف بالكذب ، وبالنفاق أيضاً . وقد حذر الله رسوله الكريم من أن يدخل عليه وضع بعض المنافقين . وهم الذين يخدعون الناس بأقوالهم ووعدهم ، وهم في حقيقة أمرهم أعداء ألداء لهم ، إذ يقول له : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » (٢٠) ..

وقد أوصى الله بنى إسرائيل ضمن ما أوصاهم : بأن يقولوا للناس حسناً . على معنى أن تكون لديهم دقة في الحديث ، وحيطة في الوعود ، وعدم الإسراف في الأمل . ولم يتبعوا واحداً مما أوصاهم به في قوله : « واذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتهم الا قليلا منكم وانتم معرضون » (٢١) .. ولذا كان جزاؤهم الخزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب .

\* \* \*

● اتباع دين الله لا يحمل المتبع له على ان يمتن على احد :

كثير من الذين يعلنون إيمانهم باتجاه حاكم في حكمه ، أو بدعوة داع في دعوته ، ينتفون من إعلانهم الإيمان باتجاه الحاكم : أن تكون لهم حظوة عند الحاكم أو الداعي ، ينالون عن طريقها منفعة مادية أو أدبية . لأن المؤمن عن اقتناع باتجاه معين في الحياة ، أو بدعوة معينة تحدد مذهباً إصلاحياً فيها ، يكفيه أن يعيش مع ذات الاتجاه أو ذات الدعوة ، دون أن يحاول الاتصال بصاحب الاتجاه أو بصاحب الدعوة ، فضلا عن أن يمتن عليه بأنه من الأتباع والمؤمنين به .

(٢١) البقرة : ٨٢

(٢٠) البقرة : ٢٠٤

وصاحب الاتجاه في الحكم ، أو صاحب الدعوة الإصلاحية عليه أن يتعلم - كمبدأ من مبادئ السياسة التي ترسم له النجاح فيما يتجه أو يدعو إليه - أن المعلنين عن إيمانهم والمتقربين به إليه فضلاً عن الممتنين به عليهم ، هم أخف الأتباع وزناً بينهم ، وأقلهم تحملاً وصبراً في طريقه ، وأكثرهم حديثاً وقولا عنه دون أن يكون لعملهم في سبيله ما يدفع عنه عداوة العدو أو تربصه به .

إن الاقتناع الذاتي باتجاه حاكم في الحكم ، أو بدعوة داع إلى الإصلاح يخلق للمقتنع متعة يحس بنشوتها ، بحيث لا تترك عنده فراغاً نفسياً يحاول أن يشغله بالحصول على حظوة الحاكم أو الداعي ، أو بالتعبير عن منة عليه بالمشاركة في الإيمان . ولكن الاحتراف بالإيمان هو الذي يدفع إلى الحظوة ليحصل عليها ، والمنة ليعبر عنها .

والمحترف بالإيمان أسوأ المتبعين له : في سلوكه ، وفيما يحترف به . أما في سلوكه فلأنه اختار أن تكون القيم التي يقوم عليها اتجاه الحكم وتتكون منها دعوة الإصلاح : سلعة يؤدي الاتجار بها إلى كسب مادي ومنفعة مادية . وأما فيما يحترف به فالاتجار بالإيمان بالمبدأ ليس خداعاً ولا مهانة فقط للمبادئ . وإنما ينطوي على تضليل للكثرة التي تطيع في اندفاع وفي غير وعي ، من يبدو في صورة المجرد عن الهوى في نصحه وفي الحديث عما يؤمن به .

والرسول محمد عليه الصلاة والسلام كحاكم وكصاحب دعوة اجتماعية إصلاحية في رسالة الله ، قد رسم له القرآن الكريم إطار سياسته داخل المجتمع الإسلامي ، وفي علاقته بالآخرين خارجه فيضع أمامه صورة من الصور التي تتكرر مع كل دعوة إصلاحية ، وهي محاولة الانتهازين الكسب المادي عن طريق عرض الإيمان وإعلانه . فيقول له : « يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » (٢٢) ..

.. إن هؤلاء الذين يجيئون إليك ويمتنون عليك بأنهم أسلموا لا تقبل

منهم منتهم ، لأن الإيمان بالدعوة في ذاته هو منفعة ذاتية لمن آمن بها .  
وهي أن المؤمن يتقى بإيمانه انحراف السلوك وأخطار المعاملات مع الآخرين .

فإذا كان هناك من يمتن على غيره فهو الله سبحانه هو الذي يمتن عليهم  
لأنه هدى هؤلاء .. إلى الإيمان ، إن كانوا صادقين فيما أعلنوه وفيما ادعوه  
من قبولهم الإسلام ديناً لهم .

وهكذا أولاً : لا ينبغي أن يكون الإيمان بالدعوة الاجتماعية  
الإصلاحية : سلعة يحترف بها انتهازي ، عندما يدعو إليها .

ثانياً : إن الإيمان الصادق يمثل هذه الدعوة يعبر عن نفسه في شعور  
المؤمن بأنه الممتن بتوفيق الله إياه إلى هذا الإيمان ، لأنه المستفيد منه .

ثالثاً : بهذا التحديد يتعد النفاق عن مجال الإيمان أو يقل . والنفاق  
هو المرض الذي يذهب بالإيمان عندما يتمكن منه .

\* \* \*

#### ● المشاركة في الإيمان هي وحدها التي تؤمن الثقة :

هناك علاقة القربى في السياسة . وهي علاقة تقوم على المصلحة الذاتية  
وعلى المنفعة . أي هي علاقة تنشأ بين مجموعة من الأفراد يتبنون اتجاهها في  
سياسة المجتمع ، على أن يكون رائدهم أولاً تحقيق المصلحة الذاتية ،  
من وراء وجودهم في القيادة السياسية . والولاء في هذه العلاقة يخدم  
منفعة شخصية ، قبل أن يخدم المصلحة العامة . والثقة في هذا الولاء ثقة  
مرهونة بدوام المنفعة وبحجمها . فهي ثقة مؤقتة ومعرضة للتحويل من طرف  
إلى تقيضه ، طالما تحكمتها المنفعة .

وهناك علاقة القرابة في الدم . وهي علاقة تقوم على العvisية . وشأنها  
شأن العلاقة السابقة فيما تستهدفه ، وفي طبيعة توقيتها بالمنفعة المتداولة .  
فالأقوياء في الدم لا يتكتلون ، بعضهم مع بعض ، إلا إذا كانت هناك مصلحة  
واحدة تجمعهم . فإن كانت لهم مصالح متعددة فهم ينقسمون فيما بينهم  
حسب تعددها وحسب التعارض القائم بينها . ولذلك كانت الثقة في ولاء  
الأقوياء ثقة موقوتة .

والنوع الثالث من العلاقات هو النوع الناشئ عن الإيمان بالله . على معنى أن تكون هناك مجموعة من الأفراد تقوم العلاقة بينهم على إيمان بالله وحده . وهذا النوع من العلاقات هو أفضلها ، وأكثرها استقراراً ، وأدخلها في الثقة المتبادلة . وبالتالي أدومها . لأن الإيمان بالله يطلب التضحية من المؤمن : بالمال .. أو بالعصية .. أو بالقوة . فهو على العكس من علاقة القربى في السياسة ، أو القرابة في الدم ، التي تستهدف كل منهما المنفعة الخاصة .

ولذا كان في تكوين المجتمع الإسلامي لأول مرة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام - وكذلك في كل وقت - ينصح القرآن المؤمنين بأن يولوا الرعاية لقرابة الإيمان ، ويؤثروها على علاقة الدم . بل يحذر من إيثار هذه على تلك . لأن هذا الإيثار لا يخدم نمو المجتمع ولا استقراره في سبيل أهدافه العليا . يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الإيمان ، ( أى لا تؤثروا بصدائقتكم وعلاقة الولاء لديكم : أقاربكم من الآباء والإخوة ، لأنهم أقارب لكم فقط ، قبل أن يشاركوكم الإيمان بالله وحده . فإذا لم يشاركوكم الإيمان بالله ومددتهم إليهم مع ذلك علاقة الصداقة والإخلاص فقد أسأتم إلى أنفسكم ) ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » (٢٣) .. والإساءة إلى أنفسكم تأتي من اختلافكم معهم في الهدف ، وفي السبيل إليه . فهدفكم أتم تحقيق قيم عليا في حياتكم الإنسانية وهي قيم الهداية الإلهية . بينما هدفهم هم تحصيل دنيا ومنافع أانية . وسيلكم هو سبيل الإنسان العادل المحسن . بينما سيلهم هم سبيل الطاغى والمعتدى .

.. والمبدأ الذى يقرره القرآن هنا في شأن تماسك المجتمع وحسن قيادته هو : أنه يجب أن تؤثر القيادة فيه بعلاقاتها الطيبة وبثقتها في مباشرة الأمور ، أولئك الذين يعطون من أنفسهم ومما يملكون من طاقات ، أكثر مما ينتظرون من مصالح فردية .. أن تؤثرهم على من يمتون لهم بصلات النسب

والقراية ، وليس لهم إلا هذه الصلوات ، مع ما قد تنطوى عليه نفوسهم من عدم إيمان بأهداف المجتمع .

ومخالفة هذا المبدأ فى قيادة المجتمع وتوجيهه يعود بالضرر على أهدافه وعلى تحقيق الاستقرار فيه .

\* \* \*

### ● التانى فى قبول الأبناء من الأعداء سمة للمؤمن :

إن الحرب النفسىة التى يثيرها أعداء أى مجتمع فى وقتنا المعاصر ليست جديدة فى علاقات المجتمعات بعضها ببعض . وربما يكون الجديد فيها هو الأسلوب الذى تخرج فيه . ولكنها فى واقع أمرها : مناورة من العدو يستهدف بها إثارة القلق أو إحداث ارتباك ما فى شؤون عدوه فى مجتمع آخر .

وقول القرآن الكريم : « يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق نبيا فتبينوا » (٢٤) . . ينبه إلى الموقف الذى يجب أن يتخذه المؤمن عندما يحمل عدوهم - وهو الفاسق هنا - إليهم نبأ يثير عدم الطمأنينة بينهم . وهو موقف التريث والاختبار لما ينقل إليهم منه . كما ينبه هذا القول القرآنى إلى أن الحرب النفسىة من السنن الاجتماعىة التى تلازم الطبائع البشرىة . كحرب القتال فى الميدان سواء بسواء . وكتاهما من الأمور الضرورىة التى تقع فى علاقات المجتمعات .

فعلى عهد الرسول عليه السلام قد أشاع أعداء المجتمع الإسلامى فى فترة من الفترات بين المؤمنين أبناء من شأنها أن تثير الاضطراب أو على الأقل تثير عدم الطمأنينة بينهم . كما يحكى القرآن فى قول الله تعالى فى وصف المؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم ولم ينزعجوا للشائعات التى يثيرها أعداؤهم : « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع ، ( والقرع هو الجروح وآثار الآلام فى القتال ) للذين أحسنوا منهم واتقوا

(٢٤) الحجرات : ٦

أجر عظيم . الذين قال لهم الناس ( وهم المنافقون بينهم وهم أعداء في واقع أمرهم ) إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ( والمراد بالناس الثانية : الأعداء الظاهرون في عداوتهم ) فزادهم ( أى هذا القول ) **أيما** ( أى على عكس ما استهدف المروجون ) وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل « (٣٥) ..

فهنا أشاع المنافقون بين المؤمنين : أن أعداءهم من المشركين الماديين أعدوا عدتهم لقتالهم ، وجمعوا المحاربين بعنادهم وزادهم لنزالهم ، مناورة من هؤلاء الأعداء ليحدثوا الفرع والخوف بين المؤمنين ، وبالتالي ليرهبوا مواجهة أعدائهم ، ويؤثروا الاستسلام لهم على ما يجب من لقاءهم في ميدان القتال ، قبل اللقاء معهم في مجال الحجة ودعوتهم إلى الهداية الإلهية .

وما جرى على عهد الرسول عليه السلام من شائعات الخوف والإرهاب عن طريق أعداء المؤمنين يجرى في كل عهد ووقت بعد ذلك حتى يومنا هذا ، وجرى بين مجتمعاتنا الإسلامية والعربية في الوقت الحاضر في الشرق الأدنى في السبعينات وما بعدها .

وموقف التآني والتريث الذي يطلبه القرآن هنا مرهون بأن يكون صاحب النبا أو المروج له من الفاسقين : « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » والفاسق هو الفاجر في عداته لقيم المجتمع الإسلامى ومبادئه .. هو الخارج خروجاً واضحاً فيما يعتقد ، ضد هذا المجتمع وإن نافق وتخفى وراء الصداقة ، أو وراء إعلان الدعم والمساندة لمجتمع المسلمين .

وموقف التآني الذي يطلبه القرآن إزاء أبناء الفاسقين ليس فقط للحفاظ على هدوء المجتمع وإعطاء الفرصة للكشف عن الأهداف الحقيقية وراء هذه الأبناء . وإنما كذلك لتجنب رد فعل لأبناء الفاسقين قد يتخذ وتكون له عواقب وخيمة على مجتمع المسلمين نفسه : « أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيبوا على ما فعلتكم نادمين » .. سواء أكان هذا القوم داخل المجتمع أو خارجه .

وهكذا الحيلة في كشف الأبناء المغرصة ، والحيلة في قبول صداقة بعض الناس وهم أعداء حقيقيون : عامل من عوامل البقاء على قوة المجتمع وتماسكه ، وعلى عدم وقوعه في كوارث ، يدفع إليها التسرع في القبول وفي رد الفعل ، وعندئذ يكون الندم لوقت طويل .

\* \* \*

### ● اشاعات السوء يجب أن تقابل بالحذر .. ثم بعدم تناقلها :

يتعرض المجتمع - أى مجتمع - لمحاولات التفكك والتشكيك في قيمه ، بعد أن يقوم ، ويبدو تساند بعضه لبعض . والمجتمع يتألف عادة أو يقوم على أساس هدف مشترك يؤمن به أفراد . ومحاولات التفكك تتجه إلى خلخلة هذا الهدف المشترك في نفوس الأفراد بالتشكيك في صلاحية القيادة وعدم اتخاذها أسوة حسنة ، وبإدعاءات تشوه صورة القادة ، إن في سلوكهم أو في معاملة بعضهم لبعض .

وقد سجل القرآن قصة « الإفك » بالنسبة للسيدة عائشة رضى الله عنها زوجة الرسول عليه السلام و بنت أبى بكر رضى الله عنه . وهى قصة أراد بها أعداء المجتمع الإسلامى إذ ذاك على عهد الرسول عليه السلام محاولة تشويه سمعة كثيرين ممن لهم شأن في قيادة المجتمع : وفي مقدمتهم : الرسول عليه السلام .. وأبو بكر رضى الله عنه .. وعائشة رضى الله عنها ، وبعض الصحابة الآخرين . وقصد القرآن من تسجيل هذه القصة : إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم عمله إزاء الشائعات المغرصة التى يحاول أعداؤهم ترويجها بينهم لتمزيق وحدتهم وصرفهم عن قيادتهم ، وبذلك يسقط مجتمعهم ، ولذا ينظر إلى هذه القصة على أنها خير لهم : « ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم » (٣٦) ..

وما جاء في القرآن من إرشاد إزاء إشاعات السوء هو الموقف الذى تفره الحكمة للتغلب عليها ، والحيلولة دون أن يتحقق هدفها من التفكيك والتشكيك .

والموقف الذى يريدہ القرآن الكريم هنا للمؤمنين في مواجهة الشائعات المغرزة والمدمرة لا يريدہ للمؤمنين وخدمهم على عهد الرسول عليه السلام .. بل يريدہ للمؤمنين في كل جيل وعهد .. وهذا هو الحكمة في نزول الوحي به واطلاع المؤمنين عليه .

والموقف الذى يمليه الوحي هنا إزاء تلك الشائعات يتلخص في أمرين :  
أولاً : ثقة المؤمنین بأنفسهم ، وعدم اهتزازهم عند سماعها والوصول فوراً بالمنطق والدلائل الواقعية إلى تأكيد أنها كذب واضح قصد به تخريب العلاقات الحسنة بين المؤمنین : « لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبین » (٢٧) ..

وبهذا الموقف تغلق النوافذ جميعها ضد آثارها السلبية على الروابط في المجتمع « ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما افضتم فيه ( وهو ترديد قصة الإفك ) عذاب عظيم » (٢٨) ..  
( لأنه كان سيئاً حتماً إلى العلاقات بين بعضكم بعضاً ) .

وثانياً : الوقوف بالشائعات عند حدها الضيق ، وعدم تناقلها من جديد على الألسنة وعدم الخوض فيها ، بإضافة أو بتفصيل وبذلك تقبر دون أن تبعث من جديد : « اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » (٢٩) ..

وهذا الموقف المزدوج يؤكد القرآن أنه للمؤمنين أينما كانوا ، وفي أى وقت وجدوا : « يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبداً ان كنتم مؤمنين » (٤٠) ..  
إذ من لوازم الإيمان في أى عهد اتباع ما أمر به القرآن هنا وعدم العودة إلى ما وقع في نفوس المؤمنین يوم ذاك ، على عهد الرسول عليه السلام .  
من : تزعر الثقة بأنفسهم وتصور بعضهم صدق ما روى إذ ذاك .. ثم من ترويح هذا الذى روى كذبا ، بنقله من مجلس إلى آخر ، ومن شخص إلى شخص .

(٢٨) النور : ١٤

(٤٠) النور : ١٧

(٢٧) النور : ١٢

(٢٩) النور : ١٥ ، ١٦

وهكذا من مبادئ الإيمان الصادق من أجل سلامة المجتمع : أن يكف المؤمنون عن تناقل الإشاعات الكاذبة من الأعداء التي تستهدف تحطيم وحدتهم ، والتشكيك في قيادتهم السليمة على أن يظنوا قبل ذلك الخير بأنفسهم ، وأن يستبعدوا بادية ذي بدء ، وقوع هذه الشائعات وبالأخص في نطاق كلمة طهر وصفاء ، وبعد عن الدنيا وما فيها من متع وإغراء .

\* \* \*

### ● الاجتماع سراً بين المؤمنين ينبغي أن يكون على البر والتقوى :

بعض النظم التي تعد لحكم المجتمعات تدعو إلى سرية الاجتماعات ، ليدبر فيها الاستيلاء على السلطة ، أو ليتفق فيها على سفك الدماء للمعارضين . وإلى أن تستولى بعض هذه النظم على الحكم تباشر الاجتماعات والتجمعات في سرية ، وتدور فيما يسمى : « تحت الأرض » . . . لتنفيذ كل ما هو غير إنساني في الخفاء ، بدعوى الوصول إلى ما هو إنساني في العلن .

والإسلام ينصح المؤمنين به إذا اجتمع بعضهم ببعض سراً ، أو آثر بعضهم الحديث مع بعض آخر في غير علانية : بأن تكون السرية التي التزموها في غير عدوان على أحد وفي غير معصية لهداية الله ، وفي غير معارضة للقائمين بأمر هذه الهداية ، وأن تكون بالأحرى في سبيل الخير .. والمصلحة العامة ، وفي سبيل تجنب العدوان والانحرافات ، وإذ يقول القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم ( أى تحدثتم سراً بعضهم لبعض ) فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ( على نحو ما جاء في كتاب الله ) وتناجوا بالبر والتقوى » (٤١) . . . يقول ذلك لأنه يريد أن يجنب المؤمنين التآمر والانشغال بالمؤامرات والمكائد في خلقها أو في مقاومتها . إذ المجتمع الذي تروج فيه المؤامرات ولو بحكم الوهم هو مجتمع يعيش في ظلام ، وفي خوف وقلق ، بعضه من بعض .

والمجتمع الذي يعيش في خوف وقلق هو مجتمع غير منتج ، مجتمع غير مترابط .. مجتمع يترقب الغدر ، ويتربص به الهالك .

ويعمل القرآن النهى عن التناجى في غير المصلحة العامة بقوله :  
« انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا الا باذن  
الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٤٢) . . . أى أن الاجتماع السرى والحديث  
فيه في خفاء إنما يكون عادة من وحى السوء وتدير الهوى والشيطان . وذلك  
لا يكون لخير عام . إنما لإحداث القلق وعدم الاستقرار بين المؤمنين في  
المجتمع . وعلى كل حال ما يصيب المؤمنين من ضرر أياً كان مصدره يصيبهم  
بإذن من الله .

وموقف المؤمنين إزاء التناجى والاجتماعات السرية هو ألا يقموا عن  
العمل والسعى في الحياة . . ألا يشغلوا بها ويجمدوا حركاتهم . وإنما عليهم  
الاستمرار في العمل ، وأن يتوكلوا على الله . أى يكلوا إليه أمر المؤامرات  
السرية والمكائد . والتوكل على الله يكون بعد أن يفرغ المتوكلون جهدهم  
البشرى في الحيلة من الأضرار ومقاومة الشر . إن عليهم أن يبحثوا أولاً  
عن مصادر هذه المؤامرات ويفتشوا عن أنجع الوسائل للوقاية منها ، ثم بعد  
ذلك : يكلوا الأمر لله القوى القادر . فمهما بلغ الإنسان في حيلته وتديره  
لوقاية نفسه من الشرور فإنه بعد ذلك في حاجة إلى الله لمساعدته في الوقاية  
منها . إذ هو رب الجميع وصاحب التدبير كله في الوجود .

وهكذا : وضع المجتمعات الإسلامية هو الوضع المفتوح الصريح . ينفر  
من المؤامرات والمكائد التي تدبر سرّاً ، والمؤمنون يجب أن يكونوا صرحاء  
في إعلان رأيهم ، وألا يتناجوا بالإثم والعدوان ، ومعصية كتاب الله .

وعليهم ألا يحزنوا إذا ما دبرت بعض الاجتماعات السرية الشريرة  
بينهم . بل يجب أن يتصدوا بالمقاومة والوقاية منها . فالضرر أى ضرر ،  
لا يلحقهم إلا بإرادة الله ، ومع تصديهم لمقاومتها والوقاية منها وبذل أقصى  
جهد لهم في ذلك ، فعليهم أن يتوكلوا على الله ، ويستندوا إلى معاوته :  
« واذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر  
الله والله خير الماكرين » (٤٣) . . .

\* \* \*

● من ليس ولاؤه للمجتمع الذى يعيش فيه لا يسوى فى الحقوق التى لأفراده :

يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله أن شاء ، إن الله عليم حكيم » (٤٤) ..

والمشركون ليسوا عبدة الأصنام من الحجارة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب ، وإنما هم عبدة غير الله - إنسانا أو حجرا ، أو حزبا ، أو دولة ، أو مؤسسة ، أو هيئة - مع كفرهم باليوم الآخر والبعث فيه . وإيمانهم بالدنيا والمحسوس وحده . هم الذين سماهم القرآن : « جاهليين » ، وتسميهم الفلسفة فى كل أطوارها بالماديين . ووصفهم هنا بأنهم « نجس » للتفكير منهم . وطالما هم يكفرون بالله واليوم الآخر فداخل نفوسهم ليس فيه صفاء ولا شفافية . فهو ظلام . والنجس عادة ينتمى إلى الظلام الذى نكرهه الإنسان ويخشاه .

وتطالب الآية المؤمنين هنا بالألا يكتنوا هؤلاء الجاهليين أو الماديين من الاقتراب من المسجد الحرام ، بعد عام فتح مكة . أى تطالبهم بالألا يكتنواهم من الكعبة والطواف حولها ، ولا من مشاعر الحج على العموم . وقد كان الحج من أعرافهم وعاداتهم حتى فتح مكة . كان من الحقوق المتعارف عليها بينهم . وقد منعوا هم المؤمنين فى صلح الحديبية من أدائه فى عام هذا الصلح .

والأمر بمنع المشركين أو الماديين من أداء الحج ، أو من الاقتراب من الكعبة والطواف حولها ليس انتقاما منهم لما فعلوه هم إزاء المؤمنين فى صلح الحديبية . وإنما هو مبدأ عام كما يتناول الجاهليين على عهد الرسول عليه السلام الذين أساءوا إلى المؤمنين ، يتناول الجاهليين أو الماديين فى العهد اللاحق لعهد إلى يوم البعث . وقصد منه : الاستخفاف بهم وتحذير المؤمنين من مخالطتهم ، وتوضيح منزلتهم بين الناس جميعا . ومن يخالطهم كمن يخالط النجس سواء بسواء .

هؤلاء المشركون كان لهم حق الاقتراب من المسجد الحرام بمكة

والطواف حول الكعبة قبل الفتح ، وحرموا من هذا الحق بعده ، لأن ولاءهم لغير الله ، وعبادتهم لما سواه . وأول بيت لله على الأخص لا يقترب منه إلا من كان ولاؤه لله وحده .

وعلى نحو هؤلاء المشركين في وجوب عدم مساواتهم بالمؤمنين في حقوقهم التي كفلها لهم القرآن : من كان ولاؤهم في المجتمعات الإسلامية المعاصرة لغير الله ، ولغير مجتمعهم ووطنهم من الماديين ، الذين ينكرون الله واليوم الآخر . فهم يعيشون مع المؤمنين في مجتمعهم الحاضر ويتجاوزونهم بالولاء ، كما يتجاوزون به مجتمعهم ووطنهم ، إلى أجنبي عنهم .

وإذا كانت سياسة القرآن إزاء الجاهليين أو الماديين بالنسبة لبيت الله في مكة ، عدم تمكينهم منه ، وحرمانهم من حق هو للمؤمنين وحدهم الآن ، فإن السياسة الرشيدة للمجتمع الإسلامي المعاصر يجب أن تقوم على عدم تمكين الخارجين بولائهم عن حدود أوطانهم إلى من يضرر العداء لها ، ولا يرى منهجه في توجيه البشرية من سبيل إلا سفك الدماء وشحن النفوس بالكراهية والبغضاء . فلا يولى هؤلاء الأمور التي تتصل بالتوجيه ، ولا يمكنون من إضلال الناس باسم الرأي ، أو باسم آخر .

قد كان للمشركين حق الاقتراب من الكعبة ، فمنعهم الإسلام - بعد أن انتصر - هذا الحق . وبرر هذا المنع بأنهم مصدر رخيص لإيذاء المؤمنين ، كالتقذارة إذا ما تفشت بين الناس لا يسلم من ضررها إنسان .

وإن خشي المجتمع الإسلامي المعاصر فقراً أو شدة من جراء هذه السياسة الإسلامية فالله وحده صاحب الفضل والنعمة . وهو العليم بمصلحة الشعوب والمجتمعات ، والحكيم فيما يوصى به من وصايا للحفاظ على هذه المصلحة : « وان خفتن عيلة فسوف يفنيكم الله من فضله ان شاء ، ان الله عليم حكيم » ..

\* \* \*

● غضب الأترياء من اصحاب الحاجة في المجتمع لا يدفع الى امساك العطاء عنهم :

في نصح الله للإنسان يريد أن يجنبه « الاتفعال » في تصرفاته ويعوده

على التريث والانزان فيها ، وبالأخص في علاقته بالآخرين معه في مجتمعه .  
لأن الانفعال ظاهرة نفسية تخرج فيها النفس عن حد الاعتدال . فالإنسان  
وهو منفعل إذا فكر لا يأمن الخطأ في تفكيره . وإذا حكم فكثيراً ما يجانبه  
الصواب . وإذا تصرف قد يقوده تصرفه إلى ما لا يحمد عقباه بالنسبة له ،  
أو بالنسبة للآخرين .

وانفعال الإنسان غالباً يكون بسبب الغير . وهنا يتجه نصح القرآن  
للإنسان إذا ما انفعال و غضب بسبب الغير ، بالألا يكون رد الفعل منه ضد  
مصلحة هذا الغير . بل يجب عليه أن يبعد الغضب في رد الفعل ، ويعزله  
تماماً ، ويظل موضوعياً ، أى يفعل الشيء بما ينبغي أن يكون عليه .

وفي مجتمع المدينة على عهد نزول القرآن ضاق بعض الصحابة من ذوى  
اليسار والفضل في المال ، بتصرفات بعض أقاربهم من ذوى الحاجة إلى  
عظائهم ، من الذين شاركوهم في الهجرة من مكة إلى المدينة . وتردد أصحاب  
هذا الفضل في المال بينهم وبين أنفسهم بسبب هذا الضيق ، في قطع عظائهم  
عن ذوى قرابتهم وهم مساكين في حاجة إلى العطاء ، فجاء الوحي ينهى عن  
قطع العطاء ، ويطلب العفو والصفح عنهم فيما أساءوا به إليهم ، ونزل قوله  
تعالى : « ولا ياتل اولوا الفضل منكم والسعة ( أى لا يمتنع أصحاب الرزق  
الواسع منكم بحلف اليمين ) ان يؤتوا اولى القربى والمساكين والمهاجرين في  
سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا » (٤٥) . .

وإذ ينهى القرآن هنا أن يكون لانفعال الغضب من أصحاب الحاجة أثر  
في قطع عطاء الأغنياء عنهم ، فإنه يريد مصلحة الطرفين : يريد مصلحة الأغنياء  
في ألا يكون هناك من أصحاب الحاجة حقد عليهم .. ويريد مصلحة المساكين  
في استمرار مساعدة الأغنياء لهم على دفع حاجتهم . وبتحقيق مصلحة الطرفين  
يظل التماسك في المجتمع ، وهو تماسك نفسى لا تؤثر فيه الفجوة بين الغنى  
والفقير فيه .

وفي الوقت ذاته يبقى المستوى الإنساني في العلاقات هو المستوى  
السائد ، وهو مستوى تحرص عليه الحكمة في التصرف والبعد فيه عن  
الحمق أو الغضب .

وعلى شاكلة هذا التوجيه في إبعاد الغضب والافتعال في علاقة الأغنياء بأصحاب الحاجة يوصى القرآن بإبعاد الغضب والافتعال في دائرة العدل بين من هم سبب الغضب ومصدر الافتعال فيقول :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم ( أى لا يكسبنكم ولا يحملنكم بغضاء قوم ) على الا تعدلوا ، ( أى على عدم العدل بينهم ) اعدلوا هو اقرب للتقوى » (٤٦) ..

والمبدأ القرآني إذن هو ألا يصدر من مؤمن تصرف أو رد فعل إلا في حدود المستوى الإنساني .. إلا في حدود ما تقره الحكمة والتريث في التفكير . فالمؤمن يجب أن يكون صاحب إنسانية . وإيمانه يجب أن يكون عاملاً إيجابياً في تحويله من ذاتي إلى إنساني . والافتعال ظاهرة في تصرف الطفولة ، بينما الحكمة أساس في تصرف الرشيد .

وهنا سياسة المجتمع يجب أن تتوطد على إبعاد الافتعال من مجالها ، أى يجب أن تكون الحكمة هي الرائدة . والحكمة ليست أكثر من الاتزان في الرأي ، وفي التعبير والموضوعية في الحجة .

\* \* \*

● مشقة الابتلاء هي السبيل الى الجزاء بالخير :

الإنسان عرضة للفقر والجحمان ، كما هو عرضة للعجز أو المرض . وليس من السهل أن يتحمل الفقر أو المرض . بل في تحمل أى منهما مشقة ، ربما تدفع به إلى اليأس من الحياة ، أو شبه اليأس منها .

ولكن الإنسان المؤمن إذا نظر إلى الدنيا على أنها دار اختبار ، وأن الابتلاء فيها كما يكون بعدم الحصول على متعتها ، يكون أيضاً بنعمها من مال ، وجاه ، وأولاد .. فإن نفسه عندئذ تتحمل الفقر أو المرض ، كما لا تخضع بالنعم ولا تفتن بالأولاد .

ويعبر القرآن الكريم عن أن الابتلاء بالفقر أو بالمرض

وبالأزمات يكاد يكون هو السبيل إلى نعم الآخرة ، في قوله تعالى .  
« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ( يوجه الخطاب للمؤمنين ، والرسول معهم )  
ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى  
يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ( أى لا تحسبوا أن طريق  
الجنة سهلا . بل هو مخفوف بالمكاره .. بل هو الصبر على البأساء والضراء  
والأزمات التي تزلزل النفوس وتثير فيها التساؤل من شدة وقعها : متى تنتهي  
ويأتى نصر الله عليها أخيراً . ويستوى في زلزلة النفوس عندئذ : نفوس الرسل  
أو نفوس المؤمنين بهم ) إلا ان نصر الله قريب » (٤٧) . . ( ولكن مع شدة  
هذه الأزمات وتأثيرها على النفوس المؤمنة فإنها لا بد أن تنتهي إلى الفرج  
وإلى النصر . لأن الله وعد المؤمنين به حقا : بالنصر . وهو النصر على أهواء  
النفوس وشهوتها .. وعلى أعداء الإيمان .. وعلى الشدائد في الحياة  
المادية ) .

والقرآن إذ يجعل الفقر أو المرض ، والأزمات عامة ، كقاعدة أساسية في  
حياة الإنسان يتلى بها ، ويختبر صبره وتحمله عن طريقها ، لا يحمله -  
كما قد يقال - على الرضا بحياة المترفين ، والسكوت عن عبثهم وإسرافهم  
في الأموال ، مع حاجة المحتاج وحرمان الفقير ، وعدم تكسب العاجز - أى  
لا يحمله على قبولها . وإنما ليكون مطمئن النفس يوم يكون غنيا فيهوى  
من غناه إلى الفقر .. ويوم يكون صحيح البدن فتصيبه العلة .. ويوم يكون  
في سر فتحل به الأزمات القاسية .

وليس هناك من بين الناس من ليس عرضة لنقيض وضعه القائم ، بعد أن  
أصبح الموت لا مفر منه ، يأتى عقب حياة له تطول أو تقصر . فالمال يأتى  
ويذهب ، ثم يأتى ، وكذلك الصحة والمرض ، والعسر واليسر ، فإذا كان  
الإنسان مستعداً نفسياً لأن يستقبل الفقر كما استقبل الثراء من قبل .. ويستقبل  
المرض كما استقبل الصحة .. ويستقبل الموت كما استقبل الحياة ، فإنه يعيش  
غير مهتز وغير مضطرب .

والإنسان المطمئن والمستقر يمكنه أن يستأنف حياة جديدة في سر ..

يمكنه أن يتغلب على المصعب والمشاق .. يمكنه أن يعود إلى الوضع المقبول لديه .. يمكنه أن يكون ذا مال ، وذا صحة ، وصاحب رخاء .

وهكذا : الابتلاء بالفقر وبالمرض ، وبالأزمات ، والإيمان بذلك . قانون للحياة الإنسانية ذاتها ، أو عامل تجديد فيها ، أو السبيل إلى السيطرة على الشدائد والمكاره فيها .

والقرآن لا يخدع المؤمنين يوم يدعوهم إلى الصبر والتحمل عند المكاره ، ويضع أمامهم مبدأ الابتلاء بالشدائد والأزمات في حياتهم الدنيوية، وهو لم يجعل جزاء الآخرة لمن نجح فصبر وتحمل على المكاره الجزاء الأول والأخير للإنسان . بل هناك بجانب الجزاء الأخروي جزاء آخر دنيوي ، وهو القدرة على التغلب على المصعب وعدم الاستسلام إلى اليأس والقنوط من ثقلها على النفوس . ولذا : إنهاء الإنسان لحياته جريمة يرتكبها في حق نفسه ، ويراها الإسلام إفلاساً وضعفاً عند مواجهة الشدائد ، كما يرى فيها هرباً من الابتلاء والإيمان به .. يراها كفرأ ، أو شبه كفر .

\* \* \*

#### ● ابتلاء المؤمنين بالشدّة أمر مقدور لله :

حتى لا يؤخذ المؤمن في حياته بسبب إيمانه ، على غرة : يبذل القرآن الكريم تصوراً قد يرد بخاطر المؤمنين . وهو أن جيلاً من أجيالهم قد يتجاوزوه القدر فلا يتعرض للابتلاء بالشدّة ، والضيق ، والقلق الذي قد يبلغ قمته . والقرآن بما يبده هنا من تصور خاطيء يضع المؤمنين في واقع الحياة ، ويبعدهم عن دخول البرج العاجي . برج الأمل الواسع والخيال الفضفاض في إعفاء الله إياهم ، كي تكون ممارستهم للحياة ممارسة عملية ليس فيها مفاجأة أو خيبة أمل .

ومن هنا كان من لوازم إيمان المؤمن أن يدرب نفسه على إرادة الحرمان مما تشتهي النفس . وقد جاءت عبادة الصوم لشهر رمضان كل عام لتعد نفس المؤمن بهذه الإرادة ، ولتذكره عند قدوم شهر الصوم : أن ليس من المفاجأة في حياته أن يوضع في أي وقت أمام حرمان يكره عليه ، وربما يكون أقسى من حرمان الصوم . ولكن استعداداته النفسى لتقبل الحرمان

الإرادى وباجتيازه مرحلته وهو مطمئن هادىء ، يستطيع أن يمر بما يكره عليه وهو غير ممزق النفس .. وهو غير يأس .. وهو صابر متوكل على الله .  
ومثل هذا المؤمن يكون فى نفسه قوة ، ريزيد فى قوة الآخرين معه ، وقوته قوة نفسية ، قبل أن تكون قوة بدنية . وصلاحية أى إنسان للحياة هى بنفسه أولاً .

القرآن الكريم يقول للمؤمنين : « ام حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البساء والنساء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » (٤٨) . . أى أنكم إن ظننتم هذا الظن وهو أنكم بمنجاة - يوماً ما - من الابتلاء والاختبار فى هذه الحياة الدنيا ، بالشدائد والأزمات والقلق النفسى المريع الذى قد يبلغ أمره بكم : أن تتشككوا فى إنقاذ الله إياكم .. تكونون قد أخطأتم فى حق أنفسكم ، وفى حق التاريخ معا . فابتلاء المؤمن بسبب إيمانه مبدأ إنسانى ، واجتماعى يقع ويتكرر ، كلما حلت بالإيمان أزمة الماديين والجاهليين الذين من شأنهم أن يصدوا عن سبيل الله ويغونها عوجاً .

وأما تشكككم فى إنقاذ الله إياكم من المحن مهما كانت قسوتها فهو أمر خاطيء فى ذاته كذلك . لأن الله يفى بوعده بنصر المؤمنين ، إذا كانت محنتهم بسبب إيمانهم ، وليست بسبب سوء تصرفهم : « ألا إن نصر الله قريب » (٤٩)

\*\*\*

فابتلاء المؤمنين بسبب إيمانهم بالله أمر مقدور فى علم الغيب . وهو مبدأ لا يتخلف : « ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » (٥٠) . . فعن طريق هذا الابتلاء ينزل الخبيث وهو المنافق فى إيمانه عن الطيب الذى قد صدق فى إيمانه . وفصل المنافق فى الإيمان عن الصادق فيه ، أمر تقتضيه ضرورة تماسك المؤمنين فى مجتمعهم .  
وإذن : المؤمن وإن كان هدفاً بسبب إيمانه لعنت الماديين أو الجاهليين ،

(٤٩) البقرة : ٢١٤

(٤٨) البقرة : ٢١٤

(٥٠) آل عمران : ١٧٩

فإيمانه هدف كذلك لشهوته وهواه وأنانيته ونجاحه ضد شهوته وأنانيته هو طريق لنصر الله على عدوه .

وهكذا : نصر الله للمؤمن مرتبط بنصر المؤمن لإيمانه على هواه . فالله لا ينصر من يعلن الإيمان ، دون أن يكون صادقا فيه .

وهكذا : إذا كان الابتلاء للمؤمن بالشدة مقدوراً لله ، فذات المؤمن هي مصدر نصره أو هزيمته .

\* \* \*

### ❶ قد يكون الطريق الشاق هو السبيل الى خير المجتمع :

شاء الله أن يلتقى في غزوة « بدر » : المؤمنون ، وهم قلة ضعاف ، بالمشركين وهم كثرة أقوياء . وربما لو شاء المؤمنون أنفسهم أمراً بشأن هذا الالتقاء لما اختاروا أن يلتقوا بأعدائهم ، والطرفان على نحو ما وصفنا غير متكافئين . وربما كانوا يؤثرون أن تكون لهم غنائم الحرب ، دون أن يباشروها .

مشيئة المؤمنين هنا تتصل بأنفسهم وبالمحافظة عليها مع الرغبة في الحصول على منفعة مادية لا يواجهون فيها مشقة ولا عنتا . وهذا أمر قريب إلى النفوس البشرية في رغباتها في هذه الحياة وفي طبائعها . ومشيئة الله هنا ترتبط بمستقبل الرسالة التي آمنوا بها ، والتي التزموا الدعوة إليها ، وحماية هذه الدعوة ، فإذا انتصر المؤمنون في هذا الالتقاء في « بدر » - وسينتصرون بفضل إيمانهم وثباتهم عليه - فسيكون النصر فيه درساً قاسياً للمشركين في علاقتهم مستقبلاً بالمؤمنين . فالطرفان غير متكافئين ، ومع ذلك كان النصر للقلة القليلة الهزيلة - ضد الكثرة القوية العاتية . وسيتردد المشركون كثيراً بعد ذلك في مواجهة المؤمنين . وهذا التردد نفسه سوف يتيح الفرصة للدعوة إلى الإيمان بالرسالة بين المشركين أنفسهم وإلى تقبلها من كثير منهم . لأن سر النصر كان في قوة الإيمان ، وليس في القوة المادية وحدها . وكان المؤمنين الآن وضعوا أمام اختبار صعب .. أمام رغبة النفوس

وطبائعها وأمانها . والطريق إلى ذلك لا يكلفهم مشقة ، وأمام الالتزام بمؤازرة الدعوة إلى دين الله وتثييته وإحفاقه بينهم وبين أجيال البشرية القادمة ، وهذا يتطلب الكثير من الجهد والتضحية بالنفس .

وطالما شاء الله أن يسلك المؤمنون طريق الجهد والتضحية بالنفس في لقاء الأعداء في غزوة بدر ، فإن مشيئته هنا لا بد أن تنطوي على مصلحة أكبر ، تفوق بكثير تلك المنفعة المؤقتة التي تصبوا إليها رغبات النفوس ، دون أن تتحمل أى عبء نفسى فى سبيلها وراء الرغبة ذاتها .

وقد سجلت سورة الأنفال هذا الاختيار الصعب فى قوله تعالى :  
« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم ( الطائفتان هما : إما الحصول من غير حرب على ما للمشركين من أموال التجارة والركائب فى قدومهم من الشام فى طريقهم إلى مكة .. وإما دخول الحرب معهم ، إن تحددت هذه الحرب من قبل المشركين معهم . فما خططه المؤمنون فى غزوة بدر هو أن يعترضوا طريق المشركين . عندئذ إما أن يترك المشركون أموالهم ويولوا الأدبار ، فتصبح للمؤمنين ، وإما أن يدخلوا فى حرب مع المؤمنين لدفعهم من طريقهم ) وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ( أى وكنتم وأنتم أيها المؤمنون تودون الأمر السهل بالنسبة لكم وهو أن تحصلوا على أموال المشركين بدون قتال ) ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » ( ٥١ ) . . ( بينما كانت إرادة الله تتمثل فى أن تدخلوا الحرب معهم وينصركم عليهم . وعندئذ يثبت الدين ويستقر أمر أمتكم ، وينتهى أمر الكافرين بالنسبة لكم ) .

والكلمات التى تجلت فيها إرادة الله هى ما جاءت فى قوله تعالى فى السورة نفسها : « اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فأضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » ( ٥٢ ) . .

ومعاونة الله للمؤمنين هنا فى سبيل النصر هى ثبات المؤمنين على إيمانهم

مع قلتهم وضعفهم بالنسبة لأعدائهم . وهذا الثبات نفسه هو الذى أثار الرعب فى قلوب الأعداء . ومتى احتل الرعب النفوس اختل توازنها ولزمتها الهزيمة حتما .

وحياة الأمم والشعوب - كحياة الأفراد - تتعرض لمشاكل وأزمات ولكل مشكلة أو أزمة حل مؤقت يسير ، تتحمله النفوس فى غير عناء ولكنه غير قاطع ، وآخر شاق بعيد الأثر فى الحياة ، وهو وحده مصدر الاستقرار والاطمئنان .

والقرآن بما عرضنا هنا من مبدأ اجتماعى ونفسى يوصى باتباع الحل الجذرى للمشكلة أو الأزمة وإن ترتب عليه تحمل المشاق . واتباع هذا الحل الجذرى يراه الإسلام جزءاً من السياسة الرشيدة للأمة .

\* \* \*

### ● الإيمان .. والقتال :

يحدث الإيمان بالله فى نفوس المقاتلين صوراً عديدة ، لا تبعدهم فحسب عن التهيب من القتال ، وإنما مع ذلك تدفعهم إلى لقاء الأعداء والنصر عليهم .

ومن هذه الصور ما يذكره القرآن الكريم فى سورة الأنفال فى قول الله تعالى : « اذ يريكهم الله فى منامك قليلاً » (٥٣) .. ( أى يريك أعداءك فى نومك عدداً قليلاً ، تشجيعاً لك على لقاءهم ) . فيذكر الرسول عليه الصلاة والسلام ، كقائد لجيش المؤمنين فى غزوة « بدر » : بالصورة الإيمانية النفسية التى ملكت عليه زمام أمره قبل لقاءه مشركى مكة ، وهم فى طريقهم من الشام ، حتى كان يستحضرها فى نومه ، وهى تلك الصورة النفسية التى استخف فيها بعدد الأعداء ، ورأى فيها ضآلتهم . وقد نقلها إلى المؤمنين معه فانطبعت فى نفوسهم كذلك . وأصبحوا أيضاً عند مواجهتهم يرونهم قلة . ويحكى هذا الانطباع قوله تعالى فى الآية التالية : « واذ يريكدهم اذ التقيتم فى اعينكم قليلاً » (٥٤) .. ( أى يريكهم - أيها

(٥٤) الأنفال : ٤٤

(٥٣) الأنفال : ٤٣

المؤمنون - أعداءكم ، رؤية عين ومشاهدة ، حينما التقيتم بهم في القتال :  
قلّة في العدد ، على نحو ما نقل إليكم الرسول صلوات الله عليه وسلامه ،  
ما رآه في منامه ) .

فقوة الإيمان دفعت الرسول عليه السلام والمؤمنين معه - وتدفع في كل  
وقت بعد ذلك - بالروح نحو القتال إلى تصور : أن أمر الأعداء هين ،  
عندما يزداد تعلقهم بالدنيا ، وتغلب عليهم الأناية ، ويخف عندهم شأن  
التضحية . ولا يقاس أمر هؤلاء عندئذ بكثرة عددهم . فهم رغم كثرة  
العدد قليلو الأثر عند المواجهة واللقاء في القتال .

والله يمتن الآن في غزوة بدر على المؤمنين : أن هداهم للإيمان ، حتى  
قويت فيهم روح التضحية في سبيل الله ، والمصلحة العامة للأمة ، وتثبيت  
القيم العليا للإنسانية . وعن قوة هذه الروح كان النصر لهم على أعدائهم .  
فهو يذكرهم بالنجاح في هذه الغزوة مع أن الوضع القتالي كان غير ملائم  
لهم في ميدان القتال . فقد كان عددهم قليلا .. وكانوا يقفون بشط الوادي ،  
دون ماء لهم ولإبلهم ، وعلى أرض رخوة تسوخ فيها الأرجل . كما كان  
ركبهم على الإبل بعدهم إلى أسفل ، قريبا إلى البحر ، لا يستطيع توفير  
الحماية لهم إلا بمشقة . بينما أعداؤهم كانوا كثيرين في العدد والقوة .  
يقفون على ربوة عالية ، ولديهم آبار المياه .. وكان ركبهم على العير وراء  
ظهورهم مباشرة ويستطيع حمايتهم في يسر .

ولكن مع عدم التعادل بين الطرفين في القوة المادية وفي الوضع  
الاستراتيجي في ميدان القتال كان النجاح في جانب الطرف غير المتفوق في  
العدد ، والقوة والموقع . وهو جانب المؤمنين ، لأن هؤلاء كانوا متفوقين  
في قوة الإيمان بالله ، وفي بيعهم نفوسهم ، وما تملك أيديهم ، في سبيل  
الدفاع عما يؤمنون به من قيم ومبادئ إنسانية رفيعة .

ولو أن إيمانهم كان ضعيفا لتهيبوا لقاء أعدائهم . إذ كانوا يتصورون  
عندئذ : تفوقهم في القوة المادية أكثر بكثير من واقع أمرهم . وكان هذا  
التصور يوحى لهم بالتردد ، ثم بالنزاع في الإقدام عليهم ، ثم بالفشل  
والهزيمة أخيراً . « ولو أراكم كثيرا ( أى ولو أراكم أيها المؤمنون

أعداءكم كثيراً في هذه الغزوة في تصوركهم ( لفشلتم ولتنازعتهم في الأمر ولكن الله نسلم ، ( بأن كان إيمانكم يعمر قلوبكم ويسد عليكم منافذ الشك في النصر عليهم ، ويحول دون التردد ودون عدم التضحية بنفوسكم في سبيل عزتكم وعزة إيمانكم ) انه عليهم بذات الصدور « (٥٥) . .

.. وإذا كانت قوة إيمان المؤمنين صورت لهم أعداءهم قلة في العدد والشأن ، وبذلك دفعتهم إلى الإقدام على قتالهم .. فإن خداع هؤلاء الأعداء وغرورهم بكثرة عددهم في الواقع دعاهم إلى تصور قلة المؤمنين وضعف أمرهم ، وبذلك لم يترددوا في اللقاء بهم كذلك ، وهنا تمت المعركة .. وتم لقاء المؤمنين بأعدائهم ، ولقاء الأعداء بالمؤمنين ، مع اختلاف الدافع على اللقاء إذ كان هذا الدافع عند المؤمنين قوة إيمانهم .. بينما كان عند الأعداء تقليصهم لأمر المؤمنين . ولولا هذا الدافع المختلف على معركة « بدر » لكل من الطرفين ما كان اللقاء بينهما ، وبالتالي ما كان النصر لأولئك المتفوقين في الإيمان بالقيم العليا ، وهم المؤمنون .

وإرادة الله جل شأنه إذن : شاعت هذا اللقاء لأول مرة بين المؤمنين والوثنيين الماديين ، كما شاعت أن يكون النصر للإيمان ليتجلى للناس ، وليسجل في تاريخ القتال والحرب : أن قوة الإيمان بالقيم العليا - وأمانة هذه القوة هي التضحية بالنفس والمتع المادية - عامل حاسم في النصر ، وإن كان ميزان القوى المادية بين الطرفين ليس متساوياً . أو من جانب آخر ليتجلى : أن القوة المادية من غير إيمان لا تقوى على هزيمة المؤمنين وإن كانوا ضعفاء : « واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقتضى الله أمراً كان مفعولاً ، ( وهو نصر المؤمنين القلة إذ ذاك ) والى الله ترجع الأمور » (٥٦) . . ( فهو الذي يحسمها ويفصل فيها . وقد وعد بنصر المؤمنين . ووعده حق عليه ، لا يخلفه ) .

\* \* \*

● من يدعو إلى الخير والإصلاح فإله يقيه السوء :

يقول الله لرسوله محمد عليه السلام : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك

من ربك ، ( فيطلب إليه تبليغ الوحي إلى أقربائه ، وأعدائه ، وأتباعه على السواء ) وإن لم تفعل ( فجاملت الآخرين في التبليغ فلم تنذر الزعماء بما كلفت بإنذاره إياهم ، طمعاً في مرضاتهم ، وخوفاً من مكروههم ) فما بلغت رسالته ، ( فأنت عندئذ - عند مجاملتك إياهم في تبليغ المطلوب إليهم - لم تبلغ ما أرسلت به من قبل الله ) والله يعصمك من الناس ، ( ولا تخش على حياتك من هؤلاء الزعماء . فالأمان لك قد تكفل به مولاك جل جلاله ، وعصمتك منهم تمهد بها صاحب الوجود ، وصاحب الخلق والحركة فيه ، وهو الله تعالى اسمه في الأرض والسماء ) . ان الله لا يهدي القوم الكافرين « (٥٧) .. ( وهناك حقيقة لا بد أن تعلمها وهي : أن الزعماء في المجتمعات المادية التي تدعوها برسالتك إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ليس من السهل إقناعهم . لأن عدم إقناعهم ليس بسبب عدم الدليل والحجة على ما تدعوهم إليه . وإنما بسبب وظائف الزعامة في المجتمع ، وهي وظائف لها وفرة من المال ، وكثير من الجاه ، ونفاذ في الحكم . وهنا هم يتعدون عن الهداية بحيث يصبحون أتباعاً وليسوا زعماء ، ولكن رغم ذلك يجب أن تبلغهم بما يوحى إليك وإن كانوا لا يرضون عنه بسبب صلفهم وعنجهيتهم ، ولا يرضون عنك بسبب إزعاجك لهم بدعوتهم إلى ما تدعوهم إليه من حق ، وبطلبك إياهم تجنب الباطل في حياتهم وحياة من يتزعمونهم ) ..

فتقرن الآية طلب تبليغ الوحي بضمان وقاية الرسول عليه السلام من السوء ومن أى مصدر يأتى منه . وضمان الله وقاية الرسول من السوء ليس لأنه رسول ، وإنما لأنه داعية إلى خير الناس وهدايتهم . فالداعية لا يأخذ أجراً ممن يدعوهم ، وليست له مصلحة شخصية بينهم ، كزعامة أو رئاسة وإنما يدعو لوجه الله فقط ، وأمين على ما يدعو إليه لا يزيد فيه حرفاً . ولا ينقص منه حرفاً ، وبذلك يكون متمحضاً لفعل الخير ومن هنا يضمن الله وقايته من أعداء الدعوة والمتربصين بها شراً .

وإذ يضمن الله حياة الرسول ، أو حياة الداعي إلى الهدى والخير :

فإنه يضمن في الواقع وجود دعوته بين الناس . ووجودها بين الناس ضرورة من ضروريات الحياة الإنسانية . فالعقل في الإنسان قد يضعف أمام هواه . ولذلك يخطيء الإنسان ولا يعرف جانب الصواب : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً ( وهو لباس الهداية والرسالة الإلهية ) يوارى سواكم ( أى يستر نقائصكم ) . وهى تلك النقائص التى لا يستطيع العقل البشرى أن يتلافها ) وریشسا ، ( أى ومع كون هداية الله ستراً لنقص الإنسان فإنها كذلك زينة للإنسان لأن اتباعها يجنبه الأخطار ) ولباس التقوى ذلك خير » ( ٥٨ ) . . ( أى وهذا اللباس الذى يقوم على اتقاء الموبقات وتجنب الفواحش والمنكر ، والأخطار والآثام - كما جاء فى هداية الله - هو خير من العقل الذى قد يضعف فلا يدفع هوى نفس أماره بالسوء ) .

والداعية إلى الحق والإيمان بالله إذن كما لا يلاحقه اليأس من عدم نجاح دعوته : لا يلاحقه الأذى والضرر من عدو الله لعصمة الله إياه ، ووقايتيه إياه من مؤامرة الإنسان . « ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » ( ٥٩ ) . .

\* \* \*

#### ● اطمئنن المؤمن الى ولاية ربه :

ليست حياة الإنسان كلها رخاء . وليس وقوف الأقباء والأصدقاء بجانب الإنسان فى الأزمات أمر موثوق به . وليست طاقات الإنسان فى كل وقت حاضرة ، كى تصد العدوان عليه أو تنقذه من مشاكله وشدائده . ولذا فالإنسان فى حاجة إلى سند دائم يفوق فى قدرته وتديره كل مخلوق موجود لا يغلب على أمره بحال .

والله وحده صاحب التفوق فى قدرته وعزته ، وصاحب الكلمة إذا قال : كن فيكون . وقد وعد سبحانه : أن يكون قريباً من عباده المؤمنين يجيب دعوة الداعى منهم . لا يتركهم وحدهم فى شدائدهم ، ولا يتخلى

عنهم في أزماتهم . وقد قال : « واذا سالك عبادى عنى فانى قريب ، اجيب دعوة الداع اذا دعان » (٦٠) . . ووعده هنا ، ووعده لا يخلفه أبداً .

وما على الإنسان الذى يريد أن يطمئن فى حياته إلى سند أمين موثوق به يقف بجانبه فى وقت الحاجة والشدة ، إلا أن يستجيب لدعوة خالقه فى رسالته ، ويؤمن به وحده ، لا يشرك معه موجوداً آخر فى العبادة ، ولا يطلب من سواه ما قد تدفع الضرورة إلى طلبه . فإذا استجاب إلى دعوة الخالق فى رسالته فإنه سيأمن الزلل والانحراف فى السلوك والمعاملة للآخرين : وبذلك يكون رشيداً فى فعله وتصرفاته . وإذا آمن به وحده يكون قد احتفظ بكرامته كإنسان ، ودفع عنه الامتهان والمذلة التى تصيبه عندما يسلك طريق الوثنية والشرك : « فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (٦١) . .

.. ونفس الاستجابة للخالق فى رسالته ستقلل من أزمات المؤمن به . لأن معنى الاستجابة لذلك : أن يحد المؤمن من اتباع الشهوة والهوى فى النفس ، وأن يشارك الآخرين معه فى متع هذه الحياة ، وفى فرصها التى ستتكافأ حتماً ، عن طريق عدم طغيان الأنانية . وإذا قلت أزمات الإنسان ، وقلت مواجهته للآخرين معه ، فى عدوانهم أو فى تربصهم للعدوان ، كان هناك مجال أساسى فى نفسه للاطمئنان ، يزيده عمقا وسعة : اعتماده على الله وحده .

والاحتمال فى حياة المؤمن لترقب الأزمات والشدائد ، يكون بسبب الإيمان ذاته . فليس من السهل على المؤمن أن تمر حياته فى يسر ، أو فى رخاء ، دون أن يصطدم بطغيان المادية التى هى العدو الأول والأخير للإيمان بالله . ولكن بالصبر ، مع الركون إلى الله ، ينتهى أجل الأزمة والشدة ، دون أن يفقد من إيمانه شيئاً .

ثم طالما كان المؤمن ليس هو الإنسان المترقب ، أى الذى يمارس الترف ، أو يسعى إليه كهدف فى الحياة ، فالمعاناة التى سيجدها فى أزمته ، ستمر عليه عندئذ ، دون أن تترك أثراً يشككه فى قيمة الإيمان .

.. فإذا لم يستجب الله لدعوة الداع ، وإذا لم يحس الداع بالاطمئنان  
النفسي لسند الله إياه وقت الشدة . فليشق أولاً في أنه من عباد الله . لأن  
استجابة الله مرهونة بأن الداع من عباده . أى إنه من المخلصين في إيمانه ،  
والمهتدين بهدأيته في تفكيرهم وفي أفعالهم .

فالْمؤمن على سبيل الحقيقة هو الذى يشعر بالسكون والاطمئنان في  
جانب الله . ويشعر بالقوة عندما ينادى الله « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله  
وجلت قلوبهم واذا تلئت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون » (٦٢) .



### ● الحرية هى سبيل العدالة الاجتماعية :

يرى الإسلام في المال : أن ملكيته ملكية خاصة ، وأن منفعته منفعة  
عامة ، للمالك ولغير المالك على السواء .

ويقول القرآن الكريم : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ،  
( البعض يملك منه كثيراً .. والبعض يملك منه قليلاً .. والبعض لا يملك  
منه شيئاً ) فما الذين فضلوا ( وهم أصحاب الأموال ) برادى رزقهم على  
ما ملكت ايماهم ( أى لا يردون من أرزاقهم وأموالهم التى يملكونها على  
عبيدهم وأرقائهم ، إن هم أففقوا عليهم منها ) فهم فيه ( أى في الرزق  
الذى بأيدي المالكين له ) مسواً » (٦٣) .. ( أى في الانتفاع به . لأن  
الرقيق لا يجوز له أن يملك وهو نفسه ملك سيده ، فهو وما بيده في ملك  
سيده ) . فالآية القرآنية تحدد هنا أمرين في شأن المال :

الأمر الأول : أن ملكية المال في الأصل ملكية خاصة ، وأن التفاوت في  
الملكية بين الناس من سنن الحياة الإنسانية .

الأمر الثانى : أن منفعة المال الخاص — أى المملوك ملكية خاصة —  
ليست قاصرة على مالكة ، بل يشترك فيها من لا يملك المال أيضاً ، ولا يجوز  
لهم أن يملكوه كذلك .

فتعقيب الآية بقولها : « فهم فيه سواء » .. يفيد أن المساواة بين المالك وغير المالك للمال هي مساواة في قضاء المصلحة فيه . أى مساواة في الانتفاع به . وبذلك ينتهى أن يراد من قوله تعالى : « فما الذين فضّلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم » .. إن الإنفاق على الأرقاء من مال أسيادهم لا ينقص من أرزاق هؤلاء الأسياد شيئاً ، على نحو ما جاء في الصدقات في قول الله تعالى : « يحق الله الربا ويربى الصدقات » (٦٤) .. فالصدقة هي إخراج من مال المتصدق ، وليست إضافة إليه ، ومع ذلك فهي سبب في نمو المزمكى عند الله .

وإذا كان الأرقاء أصحاب مصلحة ومنفعة في أموال أسيادهم - كما تذكر الآية هنا - فإن أصحاب الحاجة في الأمة عامة بحكم الزكاة تتعلق حقوقهم في سد حاجاتهم بأموال الأغنياء فيها الذين تجب عليهم الزكاة وبالمقادير المقررة في أموالهم .

وإذا كان رأى الإسلام في المشاركة في منفعة المال حتى هذه اللحظة رأياً نظرياً فإن تطبيقه يتوقف في حياة الإنسان على أداء عبادتين : أولاهما : عبادة الصوم . فهذه العبادة إذ تعد الصائم لأن يسود بإرادته على شهوته وهواه ، فإن سيادته هذه هي العامل الحاسم في جعل المشاركة في منفعة المال ، أمراً واقعياً . فهذا الصائم قد اشتدت إرادته باختياره الحرمان في صومه ، دون أن تلين قناته لميل أو إغراء شهوة .

.. وطالما كان عامل الإرادة القوية قائماً في نفس الإنسان فإنه لا يتردد في إشراك الآخرين أصحاب الحاجة معه في منفعة ماله ، اعتقاداً منه أن هذه المشاركة مصدر آخر للقربى إلى الله .

وثانى هاتين العبادتين : الزكاة . فهي الممارسة العملية للإرادة الحرة في الإنسان التي تكونت عن طريق الصوم . والزكاة يمكن أن يماطل في إخراجها الإنسان إذا لم يأخذ نفسه بأداء عبادة الصوم ، أخذاً يجعل الصوم عنده ، عادة تؤدي في غير مشقة .

والعدالة الاجتماعية عن طريق المشاركة في منفعة المال لا تتحقق ولا

تؤدي في يسر إلا إذا كان هناك التزام خلقى من الأفراد بتعبيد الطريق لها .  
والإيمان بالله ، والتدريب على أداء عباداته هو الطريق المعبد لها ، وليس  
الإلزام بقوة القانون ، أو بفرض وصاية على الأموال .

\* \* \*

### ● أداء الصوم هو الطريق الى الحرية :

طلب القرآن من الرسول محمد عليه الصلاة والسلام : أن يبلغ رسالة  
الله إلى الناس ، دون أن يحمل واحداً منهم على الإيمان بها . يقول له :  
« **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » (٦٥) ..

ثم يعلن القرآن بعد ذلك إرادة الله في شأن المال ، ويسجل أنه سبحانه  
وتعالى يعطى من نعمة المال والرزق الكافر ، كما يعطى المؤمن : وربما يزيد  
في عطائه للكافر عن عطائه للمؤمن . تقول سورة الإسراء :

« **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء ( أى الكافرون والمؤمنون ) من عطاء ربك ،  
وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم ( أى فى الرزق ، وهم  
الكافرون ) على بعض ، ( وهم المؤمنون فيعطى الكافر من المال أكثر مما  
يعطى المؤمن ) وللآخرة ( أى بالنسبة لجزء المؤمن ) أكبر درجات  
وأكثر تفضيلاً** » (٦٦) ..

ويقصر رسالة الرسول على إعلان الحق فقط .. وتسجيل القرآن إرادة  
الله في شأن المال بالنسبة للمعارض والمؤمن على السواء : يترك الله سبحانه  
للإنسان جواً طليقاً يمارس فيه مشيئته نحو الإيمان ، أو نحو الكفر برسالة  
الله . وللإنسان الآن حرية ، أى أن إرادته غير مقيدة . وهو غير واقع تحت  
تأثير الخوف أو التهديد بما من شأنه أن يحمله على أن يتجه اتجاهها معيناً  
بمشيئته .

.. ولكن على أى نحو تكون ممارسة الإنسان لحرية ؟ . وبعبارة  
أخرى على أى نحو تكون ممارسة الإنسان لحرية ممارسة سليمة ؟ أو ما  
هى حدود الفوضى فى رأى ، وما هى أمارات الصحة فى ممارسة الحرية ؟ .

(٦٦) الإسراء : ٢٠ ، ٢١

(٦٥) الكهف : ٢٩

إن الفرق بين الفوضى والحرية السليمة في رأى هو الفرق بين الرغبة الشخصية ، والتجرد عن هذه الرغبة .. هو الفرق بين الهوى ، والتجرد عنه ، عند تكوين الرأى والتعبير عنه .

يكون الإنسان حراً - أى متخلصاً من هواه ورغباته الشخصية - عندما يستهدف برأيه المصلحة العامة وحدها ، وإن كانت له مصلحة كأى فرد آخر فى تحقيقها ضمناً .

ولكن يتحرر الإنسان من تأثيره بهواه وبرغباته الشخصية - أى لكى يكون حراً - يجب أن يمارس عبادة الصوم . لأن أداءها يقوم على إرادة الحرمان مما ترغب فيه نفس الصائم وتميل إليه وتهواه . فالصائم يحرم نفسه بإرادته مما تشتهيه نفسه . وليس حرمانه نتيجة عجز وعدم استطاعة، أو نتيجة تهديد وخوف من أحد من الناس .

وعن إرادة الحرمان تتكون عادة الحرمان نفسها . وإذا ما تكونت عادة الحرمان تمكن الإنسان من أن تكون له سيادة على نفسه وميولها وشهواتها . وفى جو سيادة الإنسان على نفسه يمارس الحرية الصحيحة فى الرأى . لأنه جو « التجرد » من الميول والأهواء .

وهكذا : شاءت إرادة الله ألا يهدد هو - الإنسان - بالجوع أو بالتشرد فى سبيل لقمة العيش إذا لم يمثل لإعلان الإيمان برسالة الله .

وشاء توجيه الله لرسوله عليه السلام أن يعلن الحق ، من غير أن يكون له سلطان على أحد فى حمله على الإيمان .

وشاءت هداية الله أن ترسم للإنسان الطريق السليم لحرية الرأى ، حتى لا يظلم نفسه ببقائه فى ضلال الأهواء والشهوات . وهو طريق عبادة الصوم .

ولعظم شأن الصوم فى هذا المجال نسبة الله إليه ووعد بالجزاء عليه . « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به » .

\* \* \*